شرح رسالة ﴿ذم قسوة القلب﴾

للحافظ ابن رجب الحنبلي -رحمه الله-

شرح فضيلة الشيخ أبي عبد البر محمد مزيان الجزائري

حفظه الله

النُّسخة الأولىٰ

شرح رسالة ذم قسوة القلوب للحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

شرح فضيلة الشيخ أبي عبد البرّ محمد مزيان الجزائري

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (1) الأولىٰ

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضّل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد: فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخيرَ الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار، أما بعد:

فنتدارس وإياكم -أيها الإخوة المستمعون- رسالة مهمة تتعلق بقسوة القلوب وأسبابها ومزيلاتها.

وتظهر أهمية هذه الرسالة في تَعلُّق موضوعها بالقلب، وما أدراكم ما القلب، فالقلب هو محَلُّ نَظر الله سبحانه وتعالى من لعبد، فقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**» رواه الإمام مسلم.

والقلب هو محل التقوىٰ كما قال ﷺ في الحديث الذي عند الإمام مسلم: «**التَّقْوَىٰ هَاهُنَا "وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"**».

ولما سُئل ﷺ عن القلب المخموم قال: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**» والشاهدُ في قوله «التَّقيّ» فالقلب هو محل التقوىٰ، والقلب هو محل النِّيات التي بها تصلح الأعمال وتُقبل عند الله أو تُرّد وتبطل، كما قال ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» والحديث متفق عليه، والنِّيات بلا شك محلها القلوب.

والقلب هو محل الأعمال الباطنة التي تُسمىٰ باسمه، فتسمىٰ «أعمال القلوب» وأعظم هذه الأعمال الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ومن هذه الأعمال: الخوف والرجاء والمحبة والتوكل وغيرها من الأعمال التي تكون

في القلوب، هذه الأعمال -أعني أعمال القلوب- هي التي عليها مدار صَلاح وقَبول أعمال الجوارح، فإنَّ ثَم ترابطا بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح كما يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**من تأمَّلَ الشريعة في مصادرها ومواردها؛ علمَ ارتباطَ أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمالَ القلوب أفرضُ علىٰ العبد من أعمال الجوارح، وهل يُمَيَّزُ المؤمنُ عن المنافق إلا بما في قلب كلِّ واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينها، وهل يُمْكِنُ أحدٌ الدخولَ في الإسلام إلا بعمل قلبه قبلَ جوارحه، وعبوديَّةُ القلب أعظمُ من عبوديَّة الجوارحِ**» انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «**وَالْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ لَا تَكُونُ صَالِحَةً مَقْبُولَةً إلَّا بِتَوَسُّطِ عَمَلِ الْقَلْبِ فَإِنَّ الْقَلْبَ مَلِكٌ وَالْأَعْضَاءُ جُنُودُهُ. فَإِذَا خَبُثَ الْمَلِكُ خَبُثَتْ جُنُودُهُ**» فهذا يدل -أيها الإخوة- علىٰ أنَّ أعمال القلب لا بُدّ أن تُؤثر في أعمال الجسد وأعمال الجوارح.

فإذا القلب هو الذي عليه مدار سعادة الإنسان وشقاوته في الدنيا والآخرة لأنَّ القلب في الجسد كالراعي في رعيته فإذا صلح القلب صلح الجسد كله وإذا فسد القلب فسد الجسد كله، كما قال النبي ﷺ في حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الصحيحين: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» فالقلب هو ملك الأعضاء ومصدر توجيهها ومنبع عملها وأساس خيرها وشرِّها ورضي الله تعالىٰ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا قال: «**القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده**» القلب هو الذي تكون به النجاة والفلاح يوم القيامة لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ قلب سليم من أي شيء؟ قلب سليم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تخالف خبره، كما قال ذلك الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

فالقلب هو الذي يُقطع به سفر الآخرة، فإنَّ السير إلىٰ الله تعالىٰ إنما هو سير القلوب لا سير الأبدان كما قال القائل:

قَطعُ المسافة بالقلوبِ لا   بالسيرِ فوقَ مقاعدِ الركبانِ

ويقول الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فأفضل الناس من سلك طريق النَّبيّ ﷺ وخواص أصحابه في الاقتصاد في العبادة البدنية والاجتهاد في الأحوال القلبية، فإنَّ سفر الآخرة يقطع بسير القلوب لا بسير الأبدان**». ويقول يحيىٰ بن معاذ الرازي: «**مَفَاوِزُ الدُّنْيَا تُقْطَعُ بِالأَقْدَامِ، وَمَفَاوِزُ الآخِرَةِ تُقْطَعُ بِالْقُلُوبِ**

وأبواب ملك الملوك لا تُقرع بالأظافير وإنما بوَجيب القلوب» ويقصد بـ «وَجيب القلوب» يعني بصوت خفقانها بالاضطراب والرجفة التي تكون فيها.

ومن هذا كله تظهر مكانه القلب وأهميته بالنسبة للإنسان فمن أراد لنفسه الفوز في الدنيا والآخرة فعليه أن يعتني بقلبه عناية بالغة حرصا علىٰ سلامته وتعلما لأحكامه، فالقلب كما علمتم هو أساس الأعمال وأصل حركات البدن والجسد، فإن طاب القلب طاب البدن وإن فسد القلب فسد البدن، ولهذا قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلُها، وأحكام الجوارح متفرِّعةٌ عليها** » وهذا ما يُؤكد أنَّ المرء ينبغي عليه أن يعتني بقلبه عناية بالغة من جهة حرصه علىٰ سلامته ودفع أمراضه ومن جهة تعلم أحكامه، ولهذا كان نبينا ﷺ يهتم بإصلاح القلب غاية الإهتمام ويعتني به عليه الصلاة والسلام تمام العناية فيوصي بذلك عليه الصلاة والسلام في أحاديثه ويظهر هذا في أحاديثه الشريفة وما فيها من أدعية فقد كان ﷺ يقول: «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ**» روه الإمام مسلم.

وكان يقول ﷺ في دعائه: « **رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي** » رواه الحاكم.

ويقول في دعائه عليه الصلاة والسلام: « **اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي** » رواه الإمام أحمد وغيره.

وكان يقول في دعائه عليه الصلاة والسلام: « **اللَّهُمَّ اغْسِلْ قَلْبِي بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ** » رواه الإمام البخاري.

ويقول أيضا في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نورا** » كل هذه الأدعية يسأل فيها رسول الله ﷺ ربه صلاحا وخيرا لقلبه.

بل إنَّه عليه الصلاة والسلام كان يستعيذ بالله تعالىٰ من شرِّ قلبه فيقول: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي** » رواه أبو داود والترمذي.

ويقول ﷺ: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ**

لَا يُسْتَجَابُ لَهَا » رواه مسلم. والشاهد في قوله: «ومن قلب لا يخشع » فالواجب علىٰ كل مسلم أن يتأسّىٰ بالنبي ﷺ في الاهتمام بتزكية قلبه فيحرص علىٰ تنقيته مع العناية بإصلاح الظاهر إذ لا عبرة بصلاح الظاهر مع فساد الباطن فإنَّ قلوب الناس تختلف علىٰ حسب السلامة والعطب وعلىٰ حسب الموت والحياة فثَمَّة ثلاثة قلوب لا رابع لها:

القلب الأول: فهو القلب الحي الصحيح السليم، هذا القلب الذي ينجو به صاحبه يوم القيامة إذا أتىٰ الله عز وجل به.

القلب الثاني: فهو القلب الميت الذي لا حياة فيه، وهذا بضد الأول، هذا القلب -أيها إخوة- لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وبما يحبه ويرضاه، بل هو قلب واقف علىٰ شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه سبحانه وتعالى.

القلب الثالث: هو قلب وسط بين هذين النوعين ألا وهو القلب المريض، هذا القلب المريض هو قلب له حياة ولكن به علَّة، فله مادتان كما يذكر الإمام ابن القيم رحمه الله، مادتان تمدّه هذه مرة وهذه مرة وهو لِما غلب عليه منهما، فهذا القلب -أعني القلب المريض- تجد فيه محبة الله والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه وهذه هي مادة حياته، كما أنك تجد فيه محبة الشهوات وإيثارها والحرص علىٰ تحصيلها وتجد فيه الحسد والكبر والعجب وشيئا من الشبهات وهذه هي مادة هلاكه وعطبه، ولهذا كان قلبا مريضا.

وربنا سبحانه وتعالى قد ذكر في كتابه القلوب المريضة سواء كانت القلوب المريضة بالشهوات أو المريضة بالشبهات قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا** ﴾ هذا مرض الشبهة وقال سبحانه وتعالى: ﴿**لَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ وهذا مرض الشهوة، وصاحب القلب المريض هو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلىٰ الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلىٰ العاجلة، فهو إما إلىٰ السلامة أدنىٰ وإما إلىٰ العطب والمرض أدنىٰ، وهذا ما يُؤكد -أيها الإخوة- عِظم حاجتنا إلىٰ النظر في قلوبنا حتىٰ نُدرك قلوبنا أيَّ القلوب هي، أهيَ القلوب الحية الصحيحة السليمة، أم هي القلوب المريضة فضلا علىٰ أن تكون ميتة والعياذ بالله، لماذا الوصية بهذا الأمر العظيم؟ لأنَّ القلب -أحسن الله إليكم- قد يمرض ويشتد مرضه وصاحبه لا يعرف ذلك -والله المستعان- بل قد يكون قلبه ميتا وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنَّه لا تُؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق، فإنَّ القلب إذا كانت فيه حياة تألَّم

بورود القبيح عليه وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، فإذا قلَّب العبد نظره في نفسه وعَمَله عَلِم حال قلبه لأنَّ لمرض القلب وصحته علامات يُعرف بها.

أما علامات القلب المريض أن يَتعذَّر عليه ما خُلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلىٰ لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك علىٰ كل شهوة، فإذا وجدت نفسك -أخي المسلم- تُقدم محبوباتك من الشهوات علىٰ ما يحبه الله ويرضاه فاعلم أنَّ قلبك مريض.

وأما علامة القلب الصحيح هي أن يكون همُّه كلُّه في الله وحبه كلّه له وقصده له وبدنه له وأعماله له ونومه له ويقظته له وأفكاره تحوم علىٰ مراضي ربه ﷻ ومحابه، فلذلك تجد صاحب القلب الصحيح لا يَفتر عن ذِكر ربه، فتجده إذا دخل في الصلاة ذهب عنه غمّه وهمّه بالدنيا، وتجده يشتد عليه خروجه من هذه العبادة، فإنه يجد في هذه العبادة راحته ونعيمه وقُرَّة عينه وسرور قلبه، تجده يهتم بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص علىٰ الإخلاص فيه والمتابعة، وتجد هذا القلب -أعني القلب الصحيح- ينتفع بالمواعظ والذكرىٰ إذا سمعها.

بينما صاحب القلب المريض القاسي بضد ذلك والله المستعان، صاحب القلب المريض تجده يتكاسل عن الطاعة ولا يتلذذ بها، تجده لا ينتفع بالذكرىٰ والموعظة، فهو لا يخشع ولا يبكي ولا يتأثر بالوقوع في المعصية ولا يندم علىٰ فعلها الله المستعان، هذا صاحب القلب المريض وهو بعكس صاحب القلب الصحيح الذي ينتفع به صاحبه في الدنيا والآخرة.

ومع ذلك نقول إنَّ صاحب القلب المريض يُمكن أن يتدارك نفسه مادام في هذه الحياة الدنيا وما دام حيا، وذلك بمداواة قلبه -نعم أيها الإخوة- إنَّ كان مريضا فإنه يُداوىٰ، وثَمة من الأمور ما تزيل مرضه وقسوته فإنَّ النبي ﷺ يقول: «**تَدَاوَوْا، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يَضَعْ دَاءً إلا وضع له دَوَاءً غيرَ داءٍ واحدٍ الهَرَمُ**» رواه أحمد والترمذي وأبو داود.

وقال النبي ﷺ: «**إنَّ الله لم يُنزل داءً أو لم يخلق داءً إلا أنزل أو خلق له دواء علمه من علمه وجهله من جهله إلا السام قالوا: يا رسول الله وما السام قال الموت** » يأمر ﷺ في هذا الحديث بالتداوي ويعلمنا أنه ما من داء إلا وله شفاء، فإذا سألت وقلت: هل لأمراض القلب دواء؟ نقول: نعم، أدواء القلوب وأمراضها لها دواء بإذن الله تعالىٰ، فينبغي علىٰ من قلَّب نظره في قلبه فوجده قلبا مريضا أن يسعىٰ إلىٰ مُداواته، فربنا ﷻ قد حثّنا علىٰ التداوي والأخذ بأسباب العلاج، كما أخبرنا أنه يحيي الأرض بعد

موتها ﷻ، وهو قادر علىٰ إحياء القلوب بعد موتها أيضا.

قال ﷻ: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ قال ابن السعدي رحمه الله: «**والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر علىٰ أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق علىٰ رسوله** » فلذلك يسعىٰ العبد إلىٰ مداواة قلبه أولا يتأمل في قلبه وينظر من خلال علامات صحة القلوب ومرضها، فينظر قلبه أيُّ القلوب هي، فإن وجد قلبه مريضا قاسيا سعىٰ إلىٰ مداواته بالابتعاد عن أسباب مرضه وقسوته وبالحرص علىٰ الأمور التي تزيل القسوة والأمراض من قلبه، وهنا تأتي هذه الرسالة التي نريد مُدارستها وإياكم وهي للحافظ زين الدين عبد الرحمان ابن أحمد بن رجب الدمشقي ثم البغدادي الذي يُكنىٰ بأبي الفرج، وهو مشهور بـ«**ابن رجب الحنبلي**» رحمه الله.

هذه الرسالة هي رسالة «**ذم قسوة القلب وذكر أسبابها وما تزول به** » وموضوع هذه الرسالة مُبيَّن في عُنوانها، فهي مع اختصارها قد عالج فيها المُصنف رحمه الله ثلاثة أمور تتعلق بقسوة القلب:

الأمر الأول: ذكر ذَّم قسوة القلب.

الأمر الثاني: ذكر أسباب قسوة القلب.

الأمر الثالث: ذكر مزيلات القسوة التي إذا إعتنىٰ بها العبد زالت عنه القسوة من قلبه.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

رسالةٌ في ذمِّ قسوة القلب وذكر أسبابها وما تَئول به.

إبتدأ رسالته بحمد الله ﷻ ثم قال: «رسالةٌ في ذمِّ قسوة القلب وذكر أسبابها وما تَئول به » هذا عنوان الرسالة وموضوعها باختصار، إلا أنه قال هنا: «وما تؤول به » كذا كما في النسخة التي عندي، وهي في مجموع رسائل الحافظ ابن رجب، والصحيح أن يُقال: «وما تزول به» [فيكون اسم الرسالة] «رسالةٌ في ذمِّ » لأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ تكلم علىٰ ثلاثة أمور: تكلم أولا عن ذم قسوة القلب، وتكلم ثانيا عن أسباب قسوة القلب، وتكلم ثالثا عن مزيلات القسوة، حيث قال كما سيأتي: «وأما مزيلات القسوة » فهي هنا: «وما تزول به» وليس «وما تؤول به» وهكذا يستقيم الكلام [فيُقال] «رسالةٌ في ذمِّ قسوة القلب وذكر أسبابها وما تزول».

ومن حُسن تصنيف الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ذَكر في هذه الكلمة ما يريد معالجته في الرسالة مجملا ثم بعد ذلك يذكره مُفصلا، فالرسالة كما قلنا تعالج ثلاثة أمور:

أولا: ذم القسوة

ثانيا: ذكر أسباب القسوة

ثالثا: ذكر ما تزول به القسوة

فهو لخّصها وجمعها في هذه الكلمة هنا، ثم بعد ذلك يذكر ذلك مفصلا رَحِمَهُ اللَّهُ.

أمَّا ذمُّ القسوة.

«أمَّا ذمُّ القسوة» أي ذَّم قسوة القلب، والقسوة هي الغِلظ والصلابة والشدَّة في كل شيء، وقسوة القلب شدَّته وصلابته، ومعنىٰ شدته وصلابته أي ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه، قال المُناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف القسوة: «القسوة: غِلظ القلب».

وقول الحافظ ابن رجب هنا: «أما ذم القسوة» فالمراد به بيان حُرمتها وأنَّ قسوة القلوب محرمة، بل عدَّها العلماء من كبائر الذنوب، ولمَّا نقول محرمة يعني يجب علىٰ الإنسان أن يجتنبها ويجتنب أسبابها وأن يحرص علىٰ سلامة قلبه، بل بعض العلماء -كما قلت- عدّها من كبائر الذنوب، ذكرها من الكبائر محمد بن عبد الوهاب الإمام في كتابه «الكبائر»، و كذلك ابن حجر الهيتمي في «الزواجر عن اقتراف الكبائر» ابن حجر الهيتمي -بالتاء- وهو بخلاف ابن حجر الهيثمي، فابن حجر الهيثمي المحدث، هذا صاحب «مجمع الزوائد» وهذا كان معاصرا لابن حجر العسقلاني صاحب «فتح الباري» وأما ابن حجر الهيتمي فهو آخر، صاحب «الزواجر عن اقتراف الكبائر» ذكر ذم القسوة من جُملة كبائر الذنوب.

ثُم أورد [الحافظ ابن رجب] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلَّة من القرآن والسنة تدّل علىٰ ذم قسوة القب.

وقسوة القلب قد وردت في القرآن في ستة مواضع، منها ثلاثة مواضع ذكرها المُصنف، هي التي في سورة البقرة والزُمر والحديد -كما سيأتي معنا إن شاء الله- وبقيت التي في سورة المائدة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

وفي سورة الأنعام قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وفي سورة الحج وهو الموضع الثالث ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ هذه ثلاثة مواضع يُضاف إليها التي ذكرها الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُستدلا بها علىٰ ذَّم قسوة القلب، وكلُّ هذه الآيات في ذَّم قسوة القلب.

فَقَالَ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

ثم بَيَّن وجه كونها أشدّ قسوة، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾.

الله ﷻ قال هذا توبيخا لبني إسرائيل، فبنوا إسرائيل أراهم الله جل وعلا آيات، ومن هذه الآيات إحيائه ﷻ للموتىٰ، وهم قد شاهدوا ذلك فقال بعدها ﷻ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي قست قلوبكم من بعد ذلك كلِّه، من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة من بعد ما أراكم الآيات، وهذا الذي رأوه وشاهدوه يوجب رِقة القلب ولينه –هذا من المفروض– لأنَّهم رأوا آية من آيات الله جلّ وعلا العظيمة، زيادة علىٰ النعم العظيمة رأوا آية إحياء الموتىٰ، فهذا ما يوجب رِقة القلوب ولينها ولهذا قال لهم ﷻ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

ثم وصف جلّ وعلا قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فالحجارة أشدُّ قسوة من الحديد، فالحديد أو الرصاص إذا أُذيب في النار ذاب، بخلاف الأحجار كما قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ.

«ثم بَيَّن وجه كونها أشدّ قسوة» لأنَّ الله عز وجل قال فهي ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي قلوبكم قست حتىٰ صارت أشد قسوة من الحجارة.

«ثم بَيَّن وجه كونها أشدّ قسوة، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾» وهذا كما قال أهل العلم فيه دليل علىٰ أفضلية الحجارة علىٰ قلوبهم، لهذه الأمور المذكورة، فالحجارة منها ما يتفجر منه الأنهار ومنها ما يشَّقَّق فيخرج منه الماء ومنها ما يهبط من خشية الله، فالحجارة تتأثر من خشية الله، ومعلوم أنها تُسبح الله ﷻ، وقد قال بعض أهل التفسير في معنىٰ قوله ﷻ: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ معنىٰ ذلك أنَّ قلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، فإما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشد منها في القسوة، وقد رجَّح هذا ابن جرير الطبري شيخ المفسرين رَحِمَهُ اللهُ، فالآية التي بين أيدينا في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ إما أن تكون قلوبهم مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشَّد منها في القسوة والله المستعان، والشاهد في الآية الذي لأجلها أوردها ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في قوله «أمَّا ذمُّ القسوة» فالشاهد أنَّ قسوة القلوب مذمومة إذ جعل الله تعالىٰ الحجارة خيرا منها.

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية: «**نَهَىٰ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالَّذِينِ حَمَلُوا الْكِتَابَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، لَمَّا تَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، فَلَا يَقْبَلُونَ مَوْعِظَةً، وَلَا تَلِينُ قُلُوبُهُمْ بِوَعْدٍ وَلَا وَعِيدٍ**» انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فالآية كما بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها النهي من الله للمؤمنين أن يتشبوا بأهل الكتاب الذين حُمِّلوا الكتاب فهم أهل علم، ولكنهم نبذوا ذلك وراء ظهورهم فكان حجة عليهم، وتعمدوا ترك الحق فقست قلوبهم، فنهىٰ الله جلَّ وعلا المؤمنين أن يتشبهوا بهؤلاء.

وقد أورد الإمام مسلم في صحيحه أثرا عن أبي موسىٰ الاشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه «**بَعَثَ إِلَىٰ قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثُمِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ، فَقَالَ: أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهُمْ، فَاتْلُوهُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ، كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»

والشاهد في الآية أنَّ الله تعالىٰ نهانا عن التشبه بأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد واستمرت بهم الغفلة مخافة أن تقسو قلوبنا فنهانا عن التشبه بهم مخافة أن تقسو قلوبنا، فهذا فيه دليل علىٰ ذَّم قسوة القلب ولأجله أورد ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فوصف أهل الكتاب بالقسوة، ونهانا عن التشبه بهم.

والشاهد في الآية هو الوعيد بالويل للقاسية قلوبهم، قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ فهذا وعيد بالويل للقاسية قلوبهم، وفيه الحكم عليهم بأنهم في ضلال مبين، فهذا يدُّل أيضا علىٰ ذَّم قسوة القلب وهو الذي أراده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ.

«فوصف أهل الكتاب بالقسوة » في هذه الآية الأخيرة ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ والتي قبلها ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فوصف أهل الكتاب بالقسوة.

«ونهانا عن التشبه بهم » نعم، نُهينا أن نتشبه بأهل الكتاب كما في قوله ﷺ «**من تشبه بقوم فهو منهم** » وحتىٰ ولو كانوا أهل الكتاب، وقوله ﷺ: «**غيروا الشَّيب ولا تشبَّهوا باليهود ولا بالنصارىٰ**» وقوله «**ولا تشبَّهوا باليهود ولا بالنصارىٰ** » فيه نهي عن التشبه بهم، فهذا النهي يشمل النهي أيضا عن التشبه بهم في قسوة القلب لأننا نهينا أن نتشبه بهم، وهم قد قست قلوبهم، فيجب علينا أن لا نتشبه بهم في قسوة القلوب أيضا، وأن نسعىٰ إلىٰ أن لا تكون قلوبنا تلك القلوب القاسية، حتىٰ وإن كانت قسوة القلوب من الأمور الباطنة فهذا نستفيد منه أنَّ التشبه بالكفار يكون بالباطن كما يكون في الظاهر، ولا شك أنَّ التشبه بهم في الباطن أعظم من التشبه بالظاهر، لهذا العلماء إذا تكلموا عن التشبه بالكفار في الظاهر يقولون بأنَّ التشبه في الظاهر يورث التشبه في الباطن، يقولون هذا ليبينوا خطورة التشبه في الظاهر، فكيف –سبحان الله– إذا كان التشبه في الباطن، مما يدُّل علىٰ أنَّ التشبه في الباطن أعظم فلذلك يقول هنا «فوصف أهل الكتاب بالقسوة» وقسوة القلوب هذه من الأمور الباطنة، ثم يقول: «ونهانا عن التشبه بهم» حتىٰ في هذه الأمور الباطنة كقسوة القلب، وربما الحسد والغِّل وغير ذلك، فإنَّ هذا يُعَّد من التشبه بهم أيضا والله المستعان.

قال بعضُ السلف: لا يكون أشدّ قسوة من صاحب الكتاب إذا قسا.

هذا الأثر أورده أبو نعيم في «الحلية» عن أبي نضرة قال: «**كُنَّا نَتَحَدَّثُ إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنْ صَاحِبِ كِتَابٍ إِذَا قَسَا** » يعني إذا قسا قلبك فلا تكن تلك القسوة كقسوة قلوب أهل الكتاب، لأنَّ قسوة القلب فيها تفاوت وليست في مرتبة واحدة، وأشد الناس قسوة هم أهل الكتاب، فلذلك قال: «لا يكون أشد قسوة من صاحب الكتاب إذا قسا » لأنه ليس شيئ من القلوب أشدَّ قسوة من صاحب الكتاب إذا قسا قلبه. أتدرون لماذا؟ لأنَّ صاحب الكتاب هو صاحب علم، وصاحب العلم قد علم الحق، والذي علم الحق ولم يستجب له بل تركه هذا يعاقب بقسوة القلب والعياذ بالله، ويكون قلبه أشد قلوب العباد قسوة، ولهذا هنا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض السلف : «لا يكون أشدَّ قسوة من صاحب الكتاب إذا قسا» فإنَّ صاحب الكتاب معه علم ولكنه لم يستجب له وتركه وجعله وراء ظهره فعوقب بقسوة قلبه، ويكون قلبه أشدّ قلوب العباد والخلق قسوة، وهذا نستفيد منه فائدة عظيمة أنَّ هذا الأمر يدعو من عرف الحق من طلبة العلم علىٰ وجه الخصوص وغيرهم ممن عرف الحق أن يخافوا من المُعاقبة بقسوة القلب إذا هُم تركوا الحق الذين علموه وأعرضوا عنه، فإنَّ الذي عَلم الحق ولم يعمل به وتركه عن قصد فإنَّ هذا يُخاف عليه أن يعامل بقسوة القلب ثم يكون قلبه أشد قلوب الخلق قسوة والعياذ بالله.

ولهذا أقول موصيا نفسي وإخواني أن يتقوا الله عز وجل فيما علموا شيئا من الحق أن يعضوا عليه بالنواجذ من جهة العمل به بعد معرفته وتعليم الناس إياه، فاعملوا به وإياكم أن يكون الحق الذي علمتموه حُجة عليكم يوم القيامة ممّا يدعوا إلىٰ معاقبتكم وقد تكون المعاقبة عاجلة في الدنيا قبل الآخرة بقسوة القلوب حتىٰ تصير هذه القلوب أشدّ قلوب الخلق قسوة والعياذ بالله.

وفي «الترمذي» من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ اللهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي»

هذا الحديث لا يَصح عن نبينا ﷺ وقد ضعَّفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أهل العلم، كما في السلسلة الضعيفة، وذلك لأجل أنَّ فيه «إبراهيم بن عبد الله بن حاطب» وهو ضعيف، فهذا الحديث لا يصح عن نبينا ﷺ، وإن كان ما ورد فيه معناه صحيح، خصوصا في قولهم فيما رُوي هنا «وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ اللهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي» فقد ورد في كلام السلف كلام مثل هذا، مثل ما روي هنا عن رسول الله ﷺ ولكن هو لا يصح عن النبي ﷺ.

وفي «مسند البزَّار» عن أنس عن النبي ﷺ قال: «أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ: جُمُودُ الْعَيْنِ، وَقَسَاوَةُ الْقَلْبِ، وَطُولُ الأَمَلِ، وَالْحِرْصُ عَلَىٰ الدُّنْيَا».

وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» من طريق أبي داود النخعي الكذَّاب، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس.

وهذا الحديث أيضا كالذي قبله لا يصح عن نبينا ﷺ، وقد ضعَّفه أيضا الشيخ الألباني رحمه الله كما في «ضعيف الجامع» لأنَّ فيه «هاني بن المتوكل» وهو ضعيف، فهذا الحديث لا يصح عن نبينا ﷺ مرفوعا إلىٰ النبي ﷺ، لكن مثل هذا الكلام ورد أيضا عن السلف من ذكرهم في الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص علىٰ الدنيا، فمن جهة المعنىٰ فقد ثبت مثله عن بعض السلف، فيشهد للحديثين بعض كلام السلف الموافق لما فيه من المعاني، لكن نقول من جهة نسبتهما إلىٰ رسول الله ﷺ فالمحققون من أهل الحديث علىٰ ضعفهما وأنَّهما لا يصحان عن نبينا ﷺ.

«وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» من طريق أبي داود النخعي الكذَّاب، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس» وهذا لا شك أنَّه أشدّ ضعفا من السابق لأنَّ فيه كذَّابا. قال: «من طريق أبي داود النخعي الكذَّاب» وقد أورده في «الموضوعات» وهذا أشدّ ضعفا لأنه كما ذكر في إسناده أحد الكذابين.

وقال مالك بن دينار: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب. ذكره عبدُ الله بن أحمد في «الزهد».

وقال حُذيفة المرعشي: ما أصيب أحدٌ بمصيبة أعظم من قساوة قلبه. رواه أبو نُعيم.

«وقال مالك بن دينار: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب. ذكره عبدُ الله بن أحمد في «الزهد»» هذا يستفاد منه أنَّ عقوبة الباطن أعظم وأشدّ من عقوبة الظاهر، لأنَّه قال: «أعظم من قسوة القلب» وعدّها عقوبة، ونحن نعلم أنَّ العقوبة قد تكون في الظاهر وقد تكون في الباطن، ولذلك يحذر العبد أن يكون واقعا في المعاصي وهو سالم من عقوبة الظاهر ويرىٰ نفسه أنه لم يُعاقب، ربما هو قد عوقِب في الباطن بقسوة القلب والعياذ بالله، متماديا في المعاصي حتىٰ صار يرىٰ نفسه أنه لا يفعل شيئا ولا يلومها ولا يندم لأنَّ قلبه قد قسىٰ عقوبة من الله ﷻ، ولذلك كانت عقوبة الباطن أعظم وأشدّ من عقوبة الظاهر، ولذلك صدق مالك بن دينار حين يقول: «ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب».

فالذي سَلم له قلبه كان قلبه سليما صحيحا خاليا من القسوة ومن أمراضه التي تُعطبه فإنَّ هذا يكون في نعيم عظيم، بخلاف الذي عوقب بقسوة القلب فإنَّه في عذاب في الباطن والله المستعان، فلا شك أنَّ هذا من العقوبات العظيمة أن يُعذب في الباطن أكثر من تعذيبه في الظاهر فلا شك أنَّ هذا الكلام يدل دلالة واضحة علىٰ عِظم قسوة القلوب ولهذا أورده هنا ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

«وقال حُذيفة المرعشي: ما أصيب أحدٌ بمصيبة أعظم من قساوة قلبه. رواه أبو نُعَيم» فقسوة القلب من أعظم المصائب، هذا معنىٰ كلام حذيفة المرعشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [وهو] ابن قتادة قال: ما أصيب أحدٌ بمصيبة أعظم من قساوة قلبه . فقسوة القلوب هي من أعظم المصائب نعوذ بالله جل وعلا من هذه القلوب القاسية ونسأل الله جل وعلا أن يجعل قلوبنا لينة سليمة معافاة من الأمراض والأدواء، فقسوة القلوب من أعظم المصائب لأنَّ قسوة القلوب هي من علامات شقاوة العبد، وإذا كانت من علامة الشقاوة فأي مصيبة أعظم من هذه المصيبة مصيبة قسوة القلوب، ولهذا قال حذيفة هنا: «ما أصيب أحدٌ بمصيبة أعظم من قسوة القلب» وقسوة القلب لها أسباب إذا تعاطاها الإنسان فإنَّه يقسوا قلبه والعياذ بالله ولذلك أتبع ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام ثانيا عن ذِكر أسباب قسوة القلب قال وأمَّا أسبابُ القسوة فكثيرة: ثم عدد منها عددا وهذا نرجئه للدرس المقبل بإذن الله سبحانه وتعالىٰ.

وأمَّا أسبابُ القسوة فكثيرة:

منها: كثرةُ الكلام بغير ذكر الله؛ كما في حديث ابن عمر السابق.

فبعد أن تكلم عن ذَّم قسوة القلب وأورد الأدلة علىٰ ذلك يذكر هنا أسباب القسوة.

فقد علمنا أنَّ قسوة القلب هي من أعظم الأمراض المهلكة للعبد، المهلكة له في الدنيا والآخرة، وأنَّ هذه القسوة التي تُصيب القلوب هي في حقيقتها عقوبة من الله لبعض عباده جزاء ما اقترفوه كما نقل رَحِمَهُ اللهُ عن مالك بن دينار قوله: «**ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب** » وقسوة القلب من علامة شقاء العبد، إذ تجعل قلبه أضعف القلوب إيمانا وأسرع القلوب قبولا للشبهات والوقوع في الفتنة والضلال والعياذ بالله.

ومن آثار قسوة القلوب ذلكم الفتور الذي يكون عن طاعة الله عز وجل، والوقوع في محارمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن آثار قسوة القلب أنها تورث الوحشة والكآبة والتنافر بين القلوب مما يشيع الكراهية والبغضاء، ولذلك كانت قسوة القلب علامة علىٰ شقاء العبد، وكيف لا يشقىٰ العبد الذي قسىٰ قلبه وأنت تجده لا يتأثر بالقرآن عند تلاوته ولا عند قراءته، تجده لا يعتبر بالموت ولا بالمقابر إذا زارها أو دخلها مُشيِّعا غيره من المسلمين، فلا يتذكر في حاله ومآله وأنه سيُقبر وأنه سيموت، فتجده يضحك ويتكلم عن الدنيا في المقابر وهذا من قسوة القلوب، وزِد علىٰ ذلك قُحوط العين وقلَّة دمعها فهذا من قسوة القلب ورحم الله جلَّ وعلا الإمام ابن القيم لمّا قال: «**ومتىٰ أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالىٰ فاعلم أن قحطها من قسوة القلب وأبعد القلوب من الله القلب القاسي**».

ومن أعظم المصائب عند قاسي القلب أنه يتكبر علىٰ الحق ولا يقبله، بل يرده كما قال المُناوي رَحِمَهُ اللهُ: «**إذ القلب القاسي لا يقبل الحق وإن كثرت دلائله**».

وإذا كانت قسوة القلب من علامات شقاء العبد فإنَّ لهذه القسوة التي يُصاب بها العبد أسبابا منها ما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ فقال: «وأمَّا أسبابُ القسوة فكثيرة منها: كثرةُ الكلام بغير ذكر الله؛ كما في حديث ابن عمر السابق» يقصد بحديث ابن عمر الذي أورده سابقا، وهو الذي رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ اللهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي» وهذا فيه أنَّ كثرة الكلام بغير الله قسوة للقلب، ولكن

الحديث -كما بيَّنا- ضعيف ولا يصح عن نبينا ﷺ عند المحققين، لكن ما ذكره المصنف هنا صحيح، وهو أنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله هي من أسباب قسوة القلب، وهذا مثل ما قال عبد الله بن عون رحمه الله قال: «**ذكر الله دواء وذكر الناس داء** » فذِكر الله تعالىٰ دواء للقلوب، ولما نقول هو دواء للقلوب، فهو يُذهب عنها عِللها وأمراضها، وأما الاشتغال بذكر الناس، أي تكلم العبد بما لا ينفعه من أحاديث الناس فهذا يُمرض القلوب، فالثرثرة والكلام الذي لا ينفع يُقسِّي القلوب والعياذ بالله، ولهذا كان نبينا ﷺ يوصي ويُرغب في كثرة ذِكر الله، روىٰ الإمام الترمذي وابن ماجة في سننهما من حديث ابن الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ. قَالَ: ذِكْرُ اللهِ تَعَالَىٰ**» فهذا الحديث فيه بيان أنَّ ذِكر الله من أفضل العبادات وأشرفها.

وقد جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله «**إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: "لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ** » رواه الإمام الترمذي. فتأمل كيف حثَّه نبينا ﷺ علىٰ المداومة علىٰ ذكر الله سبحانه وتعالى، لماذا يوصي النبي ﷺ بكثرة الله سبحانه وتعالى؟ لأنَّ ذكر الله هو حياة القلوب ولا حياة للقلوب إلا به.

قال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ** » رواه الإمام البخاري. يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرح هذا الحديث: «**وذلك لأن الذي يذكر الله تعالىٰ قد أحيا الله قلبه بذكره وشرح له صدره فكان كالحي وأما الذي لا يذكر الله فإنه لا يطمئن قلبه والعياذ بالله ولا ينشرح صدره للإسلام فهو كمثل الميت وهذا مثلٌ ينبغي للإنسان أن يعتبر به وأن يعلم أنه كلما غفل عن ذكر الله عز وجل فإنه يقسو قلبه وربما يموت قلبه والعياذ بالله**» انتهىٰ كلام الشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله في الوابل الصيِّب عن ذكر الله عز وجل: «**أنه يورث حياة القلب، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالىٰ روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟** » وهذا مثل عظيم يتبّين به أهمية ذكر الله عزّ وجلّ لهذه القلوب، فليس للقلوب قرار ولا طمأنينة ولا سعادة ولا لذَّة إلا بذكر الله سبحانه وتعالى، ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ يقول القرطبي أبو عبد الله في تفسيره عند هذه

الآية: «**أَيْ وَهُمْ تَطْمَئِنُّ قلوبهم علىٰ الدوام بذكر الله بألسنتهم** » هذا علىٰ القول بأنَّ ذكر الله في هذه الآية هو ذِكر العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير، كما قال بعض أهل التفسير.

فالعبد –أيها الإخوة– يحتاج إلىٰ ذكر الله وليس إلىٰ ذكر الله فقط بل يحتاج إلىٰ كثرة ذكر الله ﷻ لمعالجة قلبه، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «**ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتىٰ يدعه كالمرآة البيضاء** » الله أكبر، فهذا المثل يتبيَّن منه عِظم ذكر الله ﷻ وأهميته لهذه القلوب، فالقلب يصدأ وجلاء ذلك الصدأ بذكر الله ﷻ، فذكر الله هو الذي يُجلي صدأ القلب، حتىٰ يصير قلبا صالحا سليما حيا، وأما إذا غفلت –أخي المسلم– عن ذكر الله ﷻ كان ذلك الصدأ الذي يتكلم عنه الإمام ابن القيم رحمه الله كان متراكبا علىٰ قلبك فيكون صدأه بحسب غفلتك عن ذكر الله ﷻ، فإذا تراكم علىٰ القلب الصدأ إسودَّ وركبه الران وفسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقا ولا يُنكر باطلا وما هذا إلا لقسوته، هذا ولا شك من أعظم عقوبات القلب والله المستعان، ثم إنَّ سبب ذلك الغفلة عن ذكر الله ﷻ فسبَّبَ هذا الصدأ حتىٰ صار القلب مُسوَّدا قد ركبه الران فصار لا يقبل حقا و لا يُنكر باطلا سببه الغفلة عن ذكر الله سبحانه.

والغفلة عن ذكر الله أثرها عظيم علىٰ المرء وهو شنيع والله المستعان، فإنَّ الغفلة عن ذكر الله وإتباع الهوىٰ يطمسان نور القلب ويُعميان بصيرته، تأمل في قوله عزَّ وجلّ: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ ذَكر الله عزَّ وجلّ أمرين: ذكر الغفلة عن ذكره وذكر إتباع الهوىٰ ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا**﴾ غفل عن ذِكر الله فعاقبه الله بأن أغفله عن ذكره ﴿**وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾ وهذا الأمر الثاني مُتبع لهواه ﴿**وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ أي مصالح دينه ودنياه صارت ضائعة مُعطلة لأنَّه غفل عن ذكر الله ﷻ، وسبب الغفلة عن ذكر الله هو الاغترار بزينة الحياة الدنيا، فالقلب إذا تعلّق بالدنيا –أيها الإخوة– صارت أفكار صاحبه وهواجسه فيها فلا تزول من قلبه، ثم لا تكون رغبته في الآخرة بسبب غفلته عن ذكر الله ﷻ، ولهذا قال تعالىٰ في بداية هذه الآية التي ذرت آنفا ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ هذا قد اغتر بزينة الحياة الدنيا وتعلّق قلبه فيها فزالت من قلبه الرغبة في الآخرة، يقول ابن سعدي رحمه الله: «**فإنَّ زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل علىٰ اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة**

السرمدية» انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

فاحذروا أيها الإخوة، إحذروا من غفلة قلوبكم عن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنسيان ذكر الله عزّ وجلّ هو موت لهذه القلوب حتىٰ تصير أجسادنا قبورا لقلوبنا والله المستعان ولقد صدق من قال:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتىٰ النشور نشور

فإذًا إشغال اللسان بكثرة الذكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو سبب لحياة القلوب، أما إذا أشغله بالكلام الذي لا نفع فيه وإن كان هذا الكلام مباحا، فهذا سبب لقسوة القلب هذا الذي أراده الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ هنا ببيان سبب من أسباب قسوة القلوب.

عن عبد الله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة» رواه الإمام أحمد والحديث في السلسلة الصححة. وفي رواية أخرىٰ عند الإمام أحمد يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما قعدَ قَومٌ مَقعدًا لا يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ ويصلُّونَ علىٰ النَّبيِّ ؛ إلَّا كان عليهِم حسرةً يومَ القيامةِ ، وإن دخلوا الجنَّةَ للثَّوابِ**» فهذا الحديث يدل علىٰ أنَّ من أسباب الحسرة يوم القيامة أن يجلس العبد مجلسا ثم يقوم ولم يذكر الله تعالىٰ فيه ولو لم يكن فيه شيئ من الكلام الحرام، فكيف الحال إذا كان المجلس كله خوض في الباطل أو وقوع في الغيبة أو النميمة أو البهتان أو السخرية والاستهزاء بالمسلمين، نسأل الله السلامة والعافية، فالحديث علىٰ ظاهره أنه يجلس مجلسا ولو تكلم بكلام مباح لا نفع فيه فإنه تكون عليه تلك الحسرة يوم القيامة، ثم إذا كان المجلس في المحرم وأصحابه يخوضون ألسنتهم فيه بالباطل فلا شك أنَّ هذا أولىٰ وأعظم، والله المستعان.

فاللسان أيضا الإخوة له تأثير عظيم علىٰ القلب وليحرص المرء علىٰ مراقبة كلامه وما يتكلم به وأن يحرص علىٰ أن لا يقول إلا خيرا، روىٰ الإمام أحمد بسند ثابت عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ**» فهذا الحديث فيه دليل علىٰ أنَّ اللسان فيه تأثير عظيم علىٰ القلب، فإذا استقام اللسان استقام القلب وصلح، وإذا استقام القلب استقام العبد علىٰ الإيمان والطاعة، وبهذا يُعلم أنَّ استقامة كله راجعة إلىٰ استقامة اللسان كما قال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا** –ومن هذه الأعضاء القلب– **تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**» فاستقامة اللسان من أعظم ما

يُصلح القلوب، وكيف لا واستقامة اللسان هي من خصال الإيمان كما ذكر ذلك الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ.

فلتعلم أخي المسلم أنَّ ثَم ترابطا بين اللسان وبين القلب يُبينه الإمام ابن القيم فيقول: «**وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَىٰ مَا فِي الْقَلْبِ، فَاسْتَدِلَّ عَلَيْهِ بِحَرَكَةِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ يُطْلِعُكَ عَلَىٰ مَا فِي الْقَلْبِ، شَاءَ صَاحِبُهُ أَمْ أَبَىٰ. قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ: الْقُلُوبُ كَالْقُدُورِ تَغْلِي بِمَا فِيهَا، وَأَلْسِنَتُهَا مَغَارِفُهَا، فَانْظُرْ إِلَىٰ الرَّجُلِ حِينَ يَتَكَلَّمُ فَإِنَّ لِسَانَهُ يَغْتَرِفُ لَكَ بِمَا فِي قَلْبِهِ**» انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

فما يظهر علىٰ اللسان غالبا هو تجلي لما يُضمر في القلب والعكس أيضا، فإنَّ اللسان هو أشد الجوارح تأثيرا في القلب وصحته ومرضه، ومن هنا يحرص المسلم علىٰ سلامة لسانه من الآفات، فإذا كان اللسان له تأثير عظيم علىٰ هذه القلوب وجب علىٰ المسلم أن يحرص علىٰ سلامة لسانة من الآفات وأن يشغله بذكر الله جلّ وعلا وما ينفعه حتىٰ يصلح قلبه أخذا بوصية النبي ﷺ القائل: «**مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيصْمُتْ**» رواه البخاري ومسلم.

فأوصي نفسي وإخواني بإشغال ألسنتنا بما يعنينا وينفعنا، فاتقوا الله عزّ وجلّ واحرصوا علىٰ ما ينفعكم، ومن ذلك ما ينفعكم من الأقوال التي تتكلمون بها، أشغلوا ألسنتكم بما يعنيكم وينفعكم، فإنَّ النبي ﷺ قد حدّث عن رجل من أصحابه رضوان الله وتبارك عليه، تُوفي هذا الرجل فقال له رجل آخر: أبشر بالجنة. فقال رسول الله ﷺ: «وما يُدريك لعلّه تكلم فيما لا يعنيه » هذا الحديث رواه الترمذي. ورواية الترمذي لا تخلوا من مقال من حديث أنس، والحديث قد صححه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ لغيره كما في صحيح الترغيب والترهيب، وورد بلفظ آخر أنَّ غلاما استشهد بيوم أحد فوُجد علىٰ بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: هنيئا يا بني الجنة. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ». فإنَّ هذا يوجب الحذر من أن يُشغل المرء لسانه بغير ما لا يعنيه، والذي يعنيك أن تتكلم بكلام هو خير في ذاته كذكر الله عزّ وجلّ وقراءة القرآن، أو كلام هو خير في غيره، كلام مباح لكن بنيتك تريد به الخير فتؤجر، فمثل هذا الكلام هو الذي يُعتنىٰ به وإلا فالصمت خير كما قال النبي ﷺ: «**فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيصْمُتْ**» فعلينا أن نكثر من ذكر الله وأن نجتنب اللغو كما كان نبينا ﷺ، إن كنا ممن يتأسي برسول الله ﷺ فاعلموا أنَّ نبيكم عليه الصلاة والسلام كان يُكثر الذكر ويُقِّلُّ اللغو

كما يقول عبد الله بن أوفىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كان يُكثر الذِكر عليه الصلاة والسلام ويُقلُّ اللغو » واللغو هو ما لا يُعتد به من الكلام وما لا نفع فيه، ومعنىٰ «يُقِلُّه» والمراد بالقلة هنا العدم أي لم يكن يتكلم بكلام لا فائدة فيه عليه الصلاة والسلام، كما قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ أنَّ المراد بالقلَّة العدم، ومنه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ**﴾ وهم كلهم كفّار قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم ﴿ **فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ وهذا في أحد قَولي المفسرين من أهل العلم، ومن شواهد اللغة: أنَّ العرب تقول «قلّ ما رأيت مثل هذا قط » تريد: ما رأيت مثل هذا قط. فيكون قول عبد الله بن أبي أوفىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن نبينا «ويُقلُّ اللغو » أي أنه لم يكن يلغو عليه الصلاة والسلام، وكان يكثر من الذكر عليه الصلاة والسلام، والشاهد -أيها الإخوة- الذي ذكره هنا ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ هو سبب من أسباب قسوة القلب وهو كثرة الكلام بغير ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومنها: نقض العهد مع الله تعالىٰ – قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

قال ابنُ عقيل يومًا في وعظه: يا من يجد من قلبه قسوة، احذر أنْ تكون نقضت عهدًا؛ فإنَّ الله يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ الآية.

«ومنها» أي من أسباب القسوة.

«نقض العهد مع الله تعالىٰ – قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ »

فنقض عهد الله هو من أسباب قسوة القلوب هذا الذي أراده ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نقض عهد الله سبب من أسباب قسوة القلوب، ونقض عهد الله وميثاقه هو التفريط في فرائضه وواجباته وانتهاك المحرمات، فعهد الله هو وصيته إلىٰ خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه في معصيته في كتبه أو علىٰ ألسنة رسله، ونقضهم ذلك ترك العمل به أي ترك العمل بأوامره والإنزجار عن نواهيه، كما نقل هذا القرطبي أبو عبد الله في تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإذا فعل العبد أمرا منهيا أو ترك مأمورا فقد نقض عهد الله، وهذا النقض يعود عليه بقسوة القلب لأنَّ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُبين بأنَّ نقض عهد الله هو سبب من أسباب قسوة القلوب، فإذا أصاب العبد ذنبا وجد أثر ذلك في قلبه بقساوة قلبه والعياذ بالله، كما نقل هنا عن ابن عقيل الحنبلي قوله: «يا من يجد من قلبه قسوة، احذر أنْ تكون نقضت عهدًا؛ فإنَّ الله يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ » فاحذر أن تكون قد نقضت عهدا لأنَّ نقض العهد من أسباب قسوة القلب، واستدل بما ذكره الله عن أهل الكتاب في قوله سبحانه ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي بسبب نقض ميثاقهم عاقبناهم وعاقبهم الله عزّ وجلّ بعقوبات، منها عقوبتين مذكورتين في جزء هذه الآية التي أوردها رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

العقوبة الأولىٰ: في قوله ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾لم يقوموا بعهد الله فلعنهم الله وطردهم من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

العقوبة الثانية: والشاهد فيها في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ بسبب ماذا؟ بسبب نقضهم لميثاقهم وعهد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقسوة القلب التي عوقبوا بها قال ابن السعدي فيها: «**وهذا من أعظم العقوبات علىٰ العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدىٰ، والخير إلا شرا** » وهذا هو الشاهد أنَّ نقض عهد الله من أسباب

قسوة القلب، فالمسلم الذي يرجوا سلامة قلبه ونجاته من القسوة يحرص علىٰ طاعة الله ﷻ فإنه سيجد بطاعته لله ﷻ حياةً ولذة في قلبه، الطاعة هي الامتثال ظاهرا والرضا باطنا لحكم الله ورسوله، وتكون هذه الطاعة بفعل المأمورات ولو ندبا وترك المنهيات ولو كراهة.

والطاعة لها أثر حسن علىٰ القلب إذا أطاع العبد ربه ﷻ هذا يقابل نقض عهد الله عزّ وجلّ بل هذا قد قام بعهد الله وميثاقه، هذا الطائع لله جلّ وعلا فلا شك أنه يجد أثرا حسنا علىٰ القلب فإذا كان نقض عهد الله وميثاقه يُسبب قسوة القلوب فإنَّ أثر الحسنة علىٰ القلوب يكون بطاعة الله عزّ وجلّ.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «**الطَّاعَةَ تُنَوِّرُ الْقَلْبَ وَتَجْلُوهُ وَتَصْقُلُهُ، وَتُقَوِّيهِ وَتُثَبِّتُهُ حَتَّىٰ يَصِيرَ كَالْمِرْآةِ الْمَجْلُوَّةِ فِي جَلَائِهَا وَصَفَائِهَا فَيَمْتَلِئَ نُورًا** » هذا أثر الطاعة القلوب هذا أثر الإمتثال لأمر الله ﷻ بفعله والإنزجار عن نهيه بتركه، فإنَّ هذا له أثرا عظيما علىٰ القلوب فأثرا علىٰ البدن كله، لأنَّ القلب هو ملك الجوارح كمّا بينّا، فراحة القلب وطمأنينته وسلامته إنما هي في طاعة الله عزّ وجلّ وأما من نقض عهد الله بعدم طاعته في أمره ونهيه فإنه يُعاقب بقسوة قلبه، ولهذا ذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله أنَّ من أسباب قسوة القلوب نقض العهد مع الله تعالىٰ.

ومنها: كثرةُ الضَّحك؛ ففي الترمذي، عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لاَ تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ» وقال: روي عن الحسن قوله.

وخرّج ابنُ ماجه، من طريق أبي رجاء الجَزَري، عن برد بن سِنان، عن مكحول، عن واثلة بن الأسقع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ».

ومن طريق إبراهيم بن عبد الله بن حنين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

«**ومنها**» أي من أسباب القسوة.

يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا أنَّ من أسباب قسوة القلب كثرة الضحك ثمَّ أورد حديثين، الحديث الأول الذي عند الإمام الترمذي من طريق الحسن عن أبي هريرة «عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لاَ تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ» » والحديث قد حسَّنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ وأورد الحديث الثاني عند ابن ماجه من طريق أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا «قال: قال رسول الله ﷺ: «كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»» وهو أيضا حديث صحيح، وهذا من وصايا نبينا ﷺ فإنَّ تمام الحديث جاء فيه أنَّ نبينا ﷺ قال لأصحابه: «**مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ: اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَىٰ النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَىٰ جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ**» فهذه من وصايا نبينا محمد ﷺ التي أمرنا بالعمل بها عليه الصلاة والسلام، ومنها الشاهد الذي أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله ﷺ «ولا تُكثر الضحك فإنَّ كثرة الضحك تميت القلب» فنهىٰ ﷺ عن كثرة الضحك، وفي رواية البخاري في الأدب المفرد قال: «أَقِّل الضحك» وهنا قال: «لا تُكثر الضحك فإنَّ كثرة القلب تميت القلب» والضحك هو المرتبة التي تلي التبسم، فمبادئ الضحك تسمىٰ التبسم الذي تبدو فيه الأسنان عند انفراج الشفتين وهذا يكون بغير صوت فإذا انفرجت الشفتان وبدت الأسنان بغير صوت هذا يُسمىٰ تبسما، فإذا كان له صوت يُسمىٰ ضحكا، وإذا كان الصوت عاليا يُسمىٰ قهقهة، والتبسم الذي هو مبادئ الضحك هو هدي النبي ﷺ فقد كان أكثر ضحكه تبسما عليه الصلاة والسلام.

يقول جرير بن عبد الله: «ما رآني رسول الله ﷺ منذ أسلمت إلا تبسم في وجهي»

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مارأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعا ضاحكا حتىٰ أرىٰ لهواته إنما كان يتبسم» والمراد بقولها: «مستجمعا ضاحكا» أي مبالغا في الضحك لم يترك منه شيئا كما قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم إنَّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم تنف الضحك عن النبي ﷺ، إذا قلنا بأنَّ النبي ﷺ كان يتبسم وكان ضحكه تبسما لا يعني أنه لم يكن يضحك عليه الصلاة والسلام، فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هنا نفت الضحك التي تظهر منه اللهاة، واللهاة هي اللحمة المتعلقة في أعلىٰ الحنك في أقصىٰ الفم، فالنبي ﷺ كان يضحك، وكان جُلُّ ضحكه التبسم، ولهذا قال جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن نبينا محمد ﷺ: «كان لا يضحك إلا تبسما» ومع ذلك ثبت أنه ضحك ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، وهذا ليس تبسما بل هو ضحك، يعني أنَّ النبي ﷺ ثبت عنه أنَّه ضحك حتىٰ بدت نواجذه، كما في حديث الرجل من أهل الكتاب الذي جاء إليه ﷺ فقال: «**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْخَلَائِقَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، قَالَ " فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ** » وما ثبت أيضا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت للنبي ﷺ وقد وجد عنها لعلبة علىٰ هيئة حصان له جناحان فقالت له: «**أما سمعتَ أن لِسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتىٰ رأيتُ نواجذه** » ومثل هذا كثير ومنه أيضا ضحكه ﷺ من الرجل الذي واقع امرأته في رمضان فجاء وحاله يُأسف لها من جهة أنه قال «احترقت» أي هلكت، وذلك لما أتىٰ امرأته في نهار رمضان ثم بعد ذلك في آخر الحديث النبي ﷺ أعطاه من الطعام، فقال: «ما بين لابتيها أفقر مني» في الأول جاء يذكر حاله ويقول «احترقت يا رسول الله» ثم بعد ذلك طمِع في ذلك الطعام فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجذه.

وظهور النواجذ عند ضحكه هذا لا يستلزم ظهور اللهاة التي نفته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سابقا، فالجمع بينهما أن يُقال: أن الغالب في ضحكه عليه الصلاة والسلام هو التبسم، ولكنه كان يضحك أحيانا وهذا علىٰ سبيل الندرة، لكن لا تبدوا لهاته عليه الصلاة والسلام.

ومن أهل العلم من قال كان يضحك ﷺ في أمور الآخرة وأمّا في أمور الدنيا فلم يزد علىٰ التبسم، وجمعهم هذا بالنظر إلىٰ الأحاديث التي ثبت فيها أنه ﷺ ضحك فوجدوها تتعلق بأمور الآخرة، أو أغلبها بأمور الآخرة، فضحك النبي ﷺ فقال بعضهم كان يضحك في أمور الآخرة ويتبسم ﷺ في أمور الدنيا ولم يزد في أمور الدنيا علىٰ التبسم.

وعليه فإنَّ ما ورد في هذا الحديث الذي أورده المصنف ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ ففيه النهي عن كثرة الضحك،

أما الضحك عند وجود مُقتضاه بلا مخالفة شرعية فهذا جائز، والمنهي عنه ليس الضحك وإنما كثرة الضحك قال ﷺ: «لا تكثروا الضحك» وفي الرواية أخرىٰ قال: «أَقِلَّ الضحك» فلم ينهىٰ عن الضحك من أصله عليه الصلاة والسلام، فلم يقل ﷺ: لا تضحك، بل قال: «لا تكثرو الضحك» وقال: «أَقِلَّ الضحك» فالمنهي هو الكثرة، قال: «فإنّ كثرة الضحك تميت القلب» وورد في رواية عند البيهقي وصححها الشيخ لألباني رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ كثرة الضحك فساد القلب» سبحان الله، كثرة الضحك تميت القلب وتفسده، لماذا تميت القلب وتُفسده؟ يقول محمد ابن إسماعيل الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ: «**وذلك لأن حياة القلب في استعماله لما خلق له من معرفة الله، والإقبال عليه، والسكون إلىٰ ذكره، والتلذذ بمناجاته، فلا حياة له ولا إنارة إلا بهذا، وكثرة الضحك لا تنشأ إلا عن الإعجاب بالأمور الدنيوية، والسرور بها، ووفور محبتها، والرغبة فيها، والقلب لا يتسع إلا لمحبوب واحد، فموت القلب هو خلوه عن ذكر الله، وإنارته بحبه وتعظيمه وخوفه ورجائه، ولما كان البشر لا يخلو عن إعجاب يتولد عنه ضحكه عفىٰ الله عن قليله لطفًا منه بعباده، فلم يجعله مميتًا للقلب**» وهذا كلام جميل للصنعاني رَحِمَهُ اللهُ فبيّن رَحِمَهُ اللهُ بأنَّ حياة القلب في استعماله لما خُلق له من معرفة الله والإقبال عليه، وأما كثرة الضحك فإنها لا تنشأ إلا عن الإعجاب بالأمور الدنيوية، تنشأ من الفرح والبطر بالدنيا كما يقول المُناوي رَحِمَهُ اللهُ، فلأجل ذلك مات ذلك القلب لخلوه مما خُلق لأجله، لأنَّ القلب لا يسع إلا لمحبوب واحد، وهذا يتعلق بكثرة الضحك، أما الضحك القليل اليسير الذي يكون عند مقتضاه بلا محذور شرعي فهذا لا بأس به، وهذا من عفو الله كما أشار، ولهذا قال:«**ولما كان البشر لا يخلو عن إعجاب يتولد عنه ضحكه عفىٰ الله عن قليله لطفًا منه بعباده، فلم يجعله مميتًا للقلب**» فهذا أيضا يعني أنَّ كثرة الضحك تجلب الغفلة والله المستعان، والغفلة تميت القلب، فحين يُقبل الإنسان علىٰ الدنيا وحين يفرح بهذه الدنيا بمتاعها ويُسَّر بها فإنَّ هذا يورث غفلته التي تميت القلب فيصير ميت القلب، هذا يضحك من كل شيئ ولا يُهمه ما يضحكه حتىٰ ولو كان الذي يُضحكه استهزاءً بالدين أو اغتيابا للصالحين والله المستعان، مع أنَّ هذه من المحذورات والمخالفات الشرعية التي لا يترتب عليها الضحك بل يترتب عليها الإنكار، وهذا مما يمتحن به المرء نفسه فإذا رأىٰ شيئا من الأمور التي فيها استهزء بدين الله وبشعائر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد أصحابها بها إضحاك الناس فليتأمل في حاله فإن ضحك فليعلم أنَّ ثمت خللا عظيما في قلبه، وأما إذا لم يضحك فقلبه قلب طيب سليم، ويترتب علىٰ هذه المخالة الشرعية التي فيها استهزاء فيه الضحك يترتب عليها الإنكار ولا

يترتب عليها الضحك، لكن هذا بالنسبة للقلوب السليمة.

واليوم في زماننا ابتلي الناس -والله المستعان- في وسائل التواصل بصفحات ومواقع خاصة بالضحك وأفلام خاصة بالضحك، تلك الأفلام الأولىٰ أن تُسمىٰ كما قال الشيخ عبد الرزاق البدر -حفظه الله- أن تُسمىٰ بأفلام إماتة القلب، لا بأفلام الضحك، هي أفلام إماتة القلب، لأنها أفلام وصفحات ديدنها الإضحاك يدخلها الواحد فيبقىٰ في الضحك ويُكثر، هذه هي كثرة الضحك التي نتكلم عنها والتي تُقسي القلب كما ذكر هنا ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكثرة الضحك تميت القلب كما قال ﷺ.

فعلينا أيها الإخوة أن نحرص علىٰ هذه الوصية النبوية وأن لا نُكثر من الضحك، اللهم إلا إذا وُجد سبب الذي لا محذور فيه، فمتىٰ وُجد ذلك السبب الذي لا محذور فيه وضحك الإنسان فهذا لا بأس به، فمتىٰ منع المسلم نفسه من الضحك الذي لا حاجة فيه وجد أُنسا في قلبه وانشراحا، إلا ما هو مأذون فيه من هذا الذي ذكرت: الضحك الذي يوجد سببه ولا يكون فيه شيئ من المخالفات الشرعية.

فعلىٰ الإنسان أن يضبط نفسه في باب الضحك، أن يمنع نفسه من الضحك الذي لا حاجة له فيه، فلا يُكثر منه، فإنك إذا ضبطت نفسك أخي المسلم ستجد بذلك أُنسا وانشراحا وسعادة في القلب، بخلاف الذي يُكثر من الضحك فإنَّ هذه تميت قلبه والعياذ بالله، ولو أشغل الإنسان نفسه بما ينفعها في الدنيا والآخرة لكان خيرا له، وإنك إن شغلت نفسك بكثرة ما يُضحكك فإنَّ هذا يعود عليك بالسوء لأنَّ هذا يُقسي قلبك والله المستعان، أما إذا اشتغل الإنسان بما ينفعه في الدنيا والآخرة وقلَّ ضحكه انتفع قلبه، يقول أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَضْحَكُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَأَبْكَىٰ الْقَوْمَ، وَأَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: «يَا مُحَمَّدُ، لِمَ تُقَنِّطُ عِبَادِي؟» ، فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَبْشِرُوا، وَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا»** » وهذا الحديث رواه البخاري في الأدب المُفرد. لمّا رآهم ﷺ يضحكون هؤلاء الرهط الذين خرج عليهم ذكّرهم وخوّفهم عليه الصلاة والسلام انقلبت حالهم سبحان الله، قال لهم النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**» تأثر الصحابة وانظر إلىٰ سُرعة استجابتهم حتىٰ بكوا وانقلب حالهم من ضحك يتحدثون ويضحكون حين ذُكِّروا وخُوِّفوا انقلب حالهم إلىٰ بكاء فانصرف النبي ﷺ وأبكىٰ القوم ولهم خنين غَطَوا رؤوسهم، كما في رواية أخرىٰ «غطوا رؤوسهم ولهم خنين» فهذه هي سرعة الاستجابة للمواعظ والذكرىٰ، وهذا فيه أنَّ العلم يوَّلد قلة الضحك ويورث

الإقبال علىٰ الله وحسن عبادته لأنَّ النبي ﷺ قال لهم: «لو تعلمون ما أعلم » الأمر يتعلق بالعلم، «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» فإنَّ العبد إذا اشتغل بالعلم النافع فإنه يقل ضحكه، لأنَّ صاحب الاشتغال بالعلم النافع يملأ وقته بالعلم ويملأ وقته بالعمل به، ولذلك تجده قليل الضحك ولذلك حتىٰ مزاحه الذي يمزحه ومتىٰ يضحك يكون مبنيا علىٰ العلم وبالضوابط الشرعية، فهذا الحديث فيه فائدة عظيمة تتعلق بأنَّ المرء إذا أشغل نفسه بما ينفعه في الدنيا والآخرة قلّ ضحكه وانتفع قلبه، كما وعض النبي ﷺ الصحابة وقال لهم: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا» لأنَّ العلم يوَلِّد قلة الضحك ويورث الإقبال علىٰ الله ويورث حسن عبادته ﷻ ولذلك قلت -أيها الاخوة- إنَّ طالب العلم حقا وصدقا مشتغل بطلب العلم في وقته، مشتغل بالعمل بذلك العلم حتىٰ يكون علمه نافعا، تجده حتىٰ في مزاحه حتىٰ في ضحكه يكون مبنيا علىٰ العلم وعلىٰ الضوابط الشرعية -سبحان الله- فإذا مزح مع إخوانه يتقرب إلىٰ الله عز وجل بذلك المزاح، لأنّ المزاح لا يُراد لذاته وإنما يُراد بما يُقصد به من الخير، فهو يمزح ويريد أن يدخل السرور علىٰ إخوانه وهذه من أحب الأعمال إلىٰ الله، يمزح ويريد الترويح عن نفسه، ساعة فساعة، من غير أن يُكثر من ذلك لأنَّ الاكثار من المزاح يذهب الحشمة ويُضعف الهيبة، كما أنَّ كثرة الضحك تميت القلب، ثم إنَّ حتىٰ مزاحه هذا يكون مبنيا علىٰ الضوابط الشرعية:

مزاحه ليس فيه كذب فإنَّ النبي ﷺ قد قال: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له»

لا يكون في مزاحه ترويع للمسلمين لأنَّ النبي ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما»

لا يكون في مزاحه استهزاء ولا سخرية بعباد الله عز وجل قال النبي ﷺ: «بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم» فمزاح طالب العلم يكون مبنيا علىٰ الضوابط الشرعية، يجعل مزاحه تقربا إلىٰ الله ﷻ كما أنه يُقِّل من كثرة الضحك وذلك لاشتغاله بالعلم والعمل به، لاشتغاله بما ينفعه فمتىٰ أشغل الإنسان نفسه بما ينفعه في الدنيا والآخرة قلّ ضحكه وانتفع قلبه انتفاعا عظيما.

نعوذ بالله من قسوة القلوب نعوذ بالله ﷻ من قلب لا يخشع ونسأله ﷻ أن يهدي قلوبنا وأن يُصلحها إنَّ ربنا لسميع الدعاء.

ومنها: كثرةُ الأكل، ولا سيما إنْ كان من الشُّبهات أو الحرام؛ قال بشر ابن الحارث: خصلتان تُقسِّيان القلب، كثرةُ الكلام وكثرة الأكل. ذكره أبو نُعيم.

وذكر المروذي في كتاب الورع، قال: قلتُ لأبي عبد الله -يعني أحمد بن حنبل-: يجد الرجلُ من قَلبه رقَّة وهو شبع؟ قال: ما أرىٰ.

«**ومنها**» أي من أسباب القسوة.

وهنا رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر من أسباب قسوة القلب كثرة الأكل، أي أنَّ العبد إذا أكثر من الأكل قسىٰ قلبه والعياذ بالله، فكثرة الأكل لها تأثير علىٰ القلب فتقسيه، حتىٰ وإن كان الأكل من الحلال، فما بالك إذا جمع بين كثرة الأكل وبين كونه حراما والله المستعان، ولهذا قال: «ولا سيما إنْ كان من الشُّبهات أو الحرام» فإنَّ تأثيره يعظم علىٰ القلوب، فأكل الحلال والإكثار منه هذا الذي يريد أنه يورث قسوة القلوب، فإن كان من حرام فهذا أشد تأثيرا، فكثرة الأكل لها تأثير علىٰ القلب فتقسّيه.

وذكر هنا عن بشر ابن الحارث: «خصلتان تُقسِّيان القلب، كثرةُ الكلام وكثرة الأكل»

وسُئل الإمام كما أورد هنا رَحِمَهُ اللَّهُ «هل يجد الرجلُ من قَلبه رقَّة وهو شبع؟ قال: ما أرىٰ» أي ما أرىٰ أنه يجد رِقَّة، وإذا لم يجد رِقَّة فإنه يجد غلظة وقسوة، فلمَّا نفىٰ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ هذا الشبع يجد رقة فلا شك أنه يجد ضدها، فيجد قسوة -والعياذ بالله- ويجد غلظة في القلب، فنقل رَحِمَهُ اللَّهُ هذا لبيان أنَّ كثرة الأكل سبب لقسوة القلب.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قسوة الْقلب من أَرْبَعَة أَشْيَاء إِذا جَاوَزت قدر الْحَاجة الْأكل وَالنَّوْم وَالْكَلَام والمخالطة كَمَا أَن الْبدن إِذا مرض لم ينفع فِيهِ الطَّعَام وَالشرَاب فَكَذَلِك الْقلب إِذا مرض بالشهوات لم تنجع فِيهِ المواعظ**» لم تنجع فيه المواعظ بسبب القسوة والعياذ بالله، فالشاهد من كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ذكر أنَّ قسوة القلب تكون من الأكل إذا جاوز قدر الحاجة، أي من كثرت الأكل وهذا المراد بقوله: «إذا جاوز قدر الحاجة» ومعلوم أنَّ الإنسان لا بد له من الطعام والشراب ليقيم بدنه.

وتعاطي الأكل والشراب هذا له مراتب بيّنها أيضا الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «**وَمَرَاتِبُ الْغِذَاءِ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا: مَرْتَبَةُ الْحَاجَةِ. وَالثَّانِيَةُ: مَرْتَبَةُ الْكِفَايَةِ. وَالثَّالِثَةُ: مَرْتَبَةُ الْفَضْلَةِ**» فثَّمة -يا إخوة- الإكتفاء بلُقَيمات يجد بها المرء قوته ويدفع بها الهلاك عن نفسه ويتقوىٰ بها علىٰ الطاعة فهذه تكفيه، فإذا أكل لُقَيمات

وجد بها القوة وخصوصا التقّوي علىٰ طاعة الله عزّ وجلّ ودفع بها الهلاك عن نفسه فهذه مرتبة من المراتب، وهي مرتبة الإكتفاء باللقيمات، وفي هذا قال رسول الله ﷺ: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ** » رواه الترمذي وابن ماجه. قال « يُقمن صلبه » أي يقمن ظهره، أي ما يحفظه من السقوط ويتقوىٰ به علىٰ الطاعة، وقال: «بحسب ابن آدم» لقيمات وأُكلات يكون بسببها وجود القوة ويتقوىٰ بها علىٰ الطاعة ثم إن تجاوز اللقيمات وهذه مرتبة أخرىٰ قال ﷺ «**فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**» وقوله ﷺ «فإن كان لا محالة» يعني من تجاوز اللقيمات والأكلات التي قال فيها ﷺ: «أكلات يقمن صلبه» فمن تجاوز ذلك قال: «فثلث» أي ثلث من بطنه أو من أمعائه يجعلها لطعامه وثلث يجعله لشرابه وثلث يتركه لنفسه يتنفسه، وهذا غاية ما اختير للأكل وهو أنفع، يعني إذا لم يكن ثَّمة اقتصار علىٰ اللقيمات فإنَّ للمرء أن يأكل بهذا الذي أشار إليه ﷺ وهو من أنفع ما يكون، أن يجعل ثلثا لطعامه وثلثا لشرابه وثلثا لنفسه، فالكفاية تحصل بما يكون به بقاء الحياة، فإذا كان لا بد من الزيادة علىٰ الكفاية فليكن في حدود ثلثي البطن للأكل والشرب والآخر يبقىٰ للنفس، فهذا جمعا بين المرتبتين، كفاية يحصل بها بقاء الحياة ووجود القوة التي يتقوىٰ بها المرء علىٰ الطاعة، فإن كان ولا بد من زيادة علىٰ هذه الكفاية فليكن في حدود ثلثي البطن لأكله وشرابه أما الثلث الآخر فلنفسه. وفوق هذا الشِبع، الذي أشار إليه ﷺ: « **مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ** » والشِبع هو حدُّ إمتلاء البطن من الطعام، وإمتلاء البطن من الطعام هذا هو المضر بالقلب بل ومُضر بالبدن أيضا كما ذكر هذا الإمام ابن القيم رحمه الله وغيره، ولكن هذا إذا كان دائما أو كان أكثريا فهذا الذي يكون مُضرا بالقلب والبدن.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «**تَجَشَّأَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ** -له النبي ﷺ-: **كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ القِيَامَةِ** » رواه الترمذي وابن ماجه. ومعنىٰ قوله ﷺ: «كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ» أي هذا نهي عن الجشاء، والحقيقة كما قال المُناوي رحمه الله النهي عن الجشاء هو نهي عن سببه وهو الشبع، فهذا نهي عن الشبع، قال المناوي رحمه الله: «**لِأَن من كثر أكله كثر شربه فكثر نَومه فكسل جِسْمه ومحقت بركَة عمره ففتر عَن عبَادَة ربه فَلَا يُعبأ يَوْم الْقِيَامَة بِهِ فَيصير فِيهَا مطروداً جيعانًا حيرانًا** » لقوله ﷺ: «**أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ القِيَامَةِ** » فأنا ذكرت بأنَّ الشبع مضر بالقلب والبدن ولكن قلت هذا إذا كان دائما أوأكثريا لأجل ما ثبت في السنة مما يدل علىٰ جواز الشبع ومن ذلك ما رواه البُخاري ومسلم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ: قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَعِيفًا أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟** »فكان أن أعدت أم سليم طعاما ودُعي رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ دعا فكثَّر الله ذلك الطعام، وممّا جاء في الحديث أنّ النبي ﷺ دعا من كان معه أيضا إلىٰ ذلك الطعام حتىٰ صار يقول النبي ﷺ لطلحة: «**«ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ»، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّىٰ شَبِعُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ»، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّىٰ شَبِعُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» حَتَّىٰ أَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالْقَوْمُ ثَمَانُونَ**» والشاهد في الحديث أنَّ هؤلاء شبعوا في حظرة النبي ﷺ وأقرَّهم علىٰ ذلك ﷺ وهذا ما يدل علىٰ جواز الشِبع، ولهذا بوَّب الإمام البخاري رحمه الله علىٰ هذا الحديث في صحيحه فقال: «**باب من أكل حتىٰ شبع**» ومما أورده رحمه الله تحت هذا الباب حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «**تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ شَبِعْنَا مِنَ الْأَسْوَدَيْنِ: التَّمْرِ وَالمَاءِ**» فقالت: «حين شبعنا» أي أنهم شبعوا وهذا ما يدل علىٰ جوازه.

ومثله حديث أبي هريرة رضي الله عنه لمّا سقىٰ النبي ﷺ ذات يوم أهل الصُفة لبنا فكان أبو هريرة معهم فأعطىٰ النبي ﷺ أبا هريرة ليَسقي القوم، قال أبو هريرة: فسقيتهم حتىٰ رووا فقال النبي ﷺ: إشرب يا أبا هريرة. فقال: شربت. ثم قال: إشرب. فشربت. ثم قال: إشرب فشربت فقلت: والذي بعثم بالحق لا أجد له مسلكا. والحديث عند الإمام البخاري. والشاهد أنَّ أبا هريرة قال للنبي ﷺ: «والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكا» مما يدل علىٰ أنَّه شبع، وأقرّه النبي ﷺ علىٰ ذلك.

فهذه الأحاديث تدل علىٰ جواز الشِبع، ومن ثَّم قال أهل العلم يجوز الشبع أحيانا جمعا بين الأحاديث كما ذكر هذا الإمام ابن القيم وذهب إليه الشيخ العثيمين رحمه الله أي أنه يُجوِّز الشبع أحيانا جمعا بين الأحاديث في أنَّ المرء يترك الشبع إذا أكل، وإذا شبع أحيانا فإنَّ هذا جائز.

ومن أهل العلم من يقول بأنه يجوز الشِبع مُطلقا وقيدوه إذا كان من غير مضرَّة وقد أورد الحافظ ابن حجر رحمه الله أقوالا لأهل العلم في فتح الباري فقال: «**قَالَ بن بَطَّالٍ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ جَوَازُ الشِّبَعِ وَأَنَّ تَرْكَهُ أَحْيَانًا أَفْضَلُ**» هذا عن ابن بطال يرىٰ جواز الشِبع وتركه أحيانا أفضل فإذا شبع الإنسان أحيانا فلا بأس به، هذا كما ذهب إليه الإمام ابن القيم رحمه الله.

ثم نقل ابن حجر رحمه الله عن ابن جرير الطبري قال: «**قَالَ الطَّبَرِيُّ غَيْرَ أَنَّ الشِّبَعَ وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا فَإِنَّ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَمَا زَادَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ سَرَفٌ وَالْمُطْلَقُ مِنْهُ مَا أَعَانَ الْآكِلَ عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِ وَلَمْ يَشْغَلْهُ ثِقَلُهُ**

عَنْ أَدَاءِ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ» والقول بجواز الشِبع مطلقا قيدوه بأن يكون بغير مضرَّة، فإذا كان أكل وشبع هذا يدفعه إلىٰ طاعة الله ﷻ ولا يُشغله عن الواجب فيرون بأنَّ هذا جائز لا بأس به، لكنه إذا بلغ إلىٰ حدٍّ يضره فإنهم يمنعون ذلك.

ثم نقل ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ عن القرطبي أبي العباس في المُفهم قال: «**قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمُفْهِمِ لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ أَبِي الْهَيْثَمِ إِذْ ذَبَحَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِصَاحِبَيْهِ الشَّاةَ فَأَكَلُوا حَتَّىٰ شَبِعُوا وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ جَوَازِ الشِّبَعِ وَمَا جَاءَ مِنَ النَّهْيِ عَنْهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ الشِّبَعِ الَّذِي يُثْقِلُ الْمَعِدَةَ وَيُثَبِّطُ صَاحِبَهُ عَنِ الْقِيَامِ لِلْعِبَادَةِ وَيُفْضِي إِلَىٰ الْبَطَرِ وَالْأَشَرِّ وَالنَّوْمِ وَالْكَسَلِ وَقَدْ تَنْتَهِي كَرَاهَتُهُ إِلَىٰ التَّحْرِيمِ بِحَسَبِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَفْسَدَةِ**» فالقرطبي يرىٰ بجواز الشِبع لكنَّه حمله علىٰ الشِبع الذي يُثقل المرء ويُقعده عن عبادة الله ﷻ ويُفضل إلىٰ البطر والأشر والنوم والكسل كما ذكره رَحِمَهُ اللهُ، وهذا نستفيد منه أنَّ ما زاد عن الشبع حتىٰ يصل للتخمة المُؤذية فهذا يُنهىٰ عنه ولهذا قال هنا: «**وَقَدْ تَنْتَهِي كَرَاهَتُهُ إِلَىٰ التَّحْرِيمِ بِحَسَبِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَفْسَدَةِ**» فالزيادة علىٰ الشِبع حتىٰ يصل المرء إلىٰ التُخمة التي تُؤذيه وتُقعده عن آداء الواجب فهذه منهي عنها، ولهذا قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في الشرح الممتع عند قول صاحب المتن: «وأكله كثيرا بحيث يُؤذيه» قال الشيخ العثيمين: «**أي: أن ذلك يكره، وعلامة الأذىٰ أن يضيق النفَس، ويتعب عند القيام، والاضطجاع، وما أشبه ذلك. واختار شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أن هذا حرام، وهو الصواب، فلا يجوز للإنسان أن يأكل أكلاً يؤذيه**»

فالخير للإنسان أن يُقِّل من الطعام ويكتفي بما يجد به قوته، فيأكل قليلا ثم إذا احتاج إلىٰ الطعام أكل مرة أخرىٰ ولو تعدّد أكله لمرات في اليوم ولو أكل ثلاث مرات أو أربع مرات أو خمس مرات، يعني يأكل قليلا فإذا احتاج إلىٰ الطعام زاد مرة أخرىٰ وأكل فهذا خير له، ثم إنَّ له أن يشبع أحيانا ولا ينبغي أن يصل شِبعه إلىٰ حدِّ التُخمة التي تؤذيه فهذه منهي عنها، فمن أهل العلم من يرىٰ الكراهة ومنهم من يرىٰ التحريم، كما ذهب إلىٰ هذا الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ، ولا شك أنَّ الأخذ بالهدي النبوي أسلم وأنفع فثلث طعام وثلث شراب وثلث نفس، وهذا فيه حث علىٰ التقليل من الطعام أي يحث النبي ﷺ علىٰ التقليل من الطعام فهذا أنفع للإنسان.

ومن ذلك أيضا قوله ﷺ: «**الْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ، وَالْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًىٰ وَاحِدٍ**» والحديث

رواه البخاري ومسلم. واختلف العلماء في تفسير هذا الحديث، ومما قيل كما ذكر هذا الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «**وَقِيلَ الْمُرَادُ حَضُّ الْمُؤْمِنِ عَلَىٰ قِلَّةِ الْأَكْلِ إِذَا عُلِمَ أَنَّ كَثْرَةَ الْأَكْلِ صِفَةُ الْكَافِرِ فَإِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَنْفِرُ مِنَ الِاتِّصَافِ بِصِفَةِ الْكَافِرِ وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كَثْرَةَ الْأَكْلِ مِنْ صِفَةِ الْكُفَّارِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يتمتعون ويأكلون كَمَا تَأْكُل الْأَنْعَام﴾**» فقلّة الطعام أنفع وهذا من هدي نبينا عليه الصلاة والسلام، وقلّة الطعام فيها منافع منها ما نقله القرطبي أبو عبد الله في تفسيره قال: «**قِيلَ: فِي قِلَّةِ الْأَكْلِ مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ أَصَحَّ جِسْمًا وَأَجْوَدَ حِفْظًا وَأَزْكَىٰ فَهْمًا وَأَقَلَّ نَوْمًا وَأَخَفَّ نَفْسًا ومن أعظم فوائد قلّة الطعام انتفاع القلب بذلك**» وهذا هو الشاهد الذي نتكلم عنه في مقام شرحنا لهذا الكتاب حيث أنَّ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر بأنَّ كثرة الأكل هي من أسباب قسوة القلب، فإنَّ من أعظم فوائد قلّة الطعام والأكل انتفاع القلب بذلك.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**من أراد أن يخشع قلبه ويَغزُرَ دَمعُه فليأكل في نصف بطنه**» أي يقّل الطعام. والمراد بقوله: «فليأكل في نصف بطنه» أي لا يملأ بطنه، ولا يُكثر من الأكل. وأما كثرة الأكل فإنها تسبب قسوة القلب كما ذكر ابن رجب هنا، وقد قيل: «**البِطنة تُذهب الفطنة**» وقيل: «**إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة**» فالشاهد من هذا كله –أحسن الله إليكم– أنَّ كثرة الأكل هي من أسباب قسوة القلب.

ومنها: كثرةُ الذنوب؟ قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

«**ومنها**» أي من أسباب القسوة.

ذكر ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ من أسباب قسوة القلب كثرة الذنوب واستدل بهذه الآية ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هذه الآية في سورة المطففين في سياق التكلم عن المكذبين بيوم الدين والذين قالوا عن القرآن أنّه أساطير الأولين، فهؤلاء لم تُؤمِن قلوبهم، ولك أن تسأل ما السبب؟ السبب إنَّ الرين الذي لبس قلوبهم حجبها عن الحق، وذلك من كثرة الذنوب والخطايا، المعاصي غطّت قلوبهم حتىٰ حجبتها عن الحق والعياذ بالله، وهذا هو المراد بالرين تلك الغشاوة التي تكون علىٰ القلب ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فإنهم كذّبوا بيوم الدين وقالوا عن القرآن أساطير الأولين فلم تؤمن قلوبهم لأنَّ علىٰ قلوبهم الرَين الذي قد لَبِسها وحجبها عن الحق والعياذ بالله، ما سبب هذا الرين؟ هو كثرة الذنوب والخطايا، فتأمل كيف غطّت المعاصي والذنوب قلوبهم حتىٰ حجبتها عن الحق ثم الأمر الآخر الأعظم في الآية التي بعد هذه الآية، انظر إلىٰ الجزاء لمّا حُجبت قلوبهم عن الحق قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**﴾ أي حُجبوا عن الله يوم القيامة كما حُجبت قلوبهم في الدنيا عن آياته بسبب الذنوب والمعاصي، هكذا تُؤثر الذنوب والمعاصي يا عباد الله، حجبت قلوبهم في الدنيا فحُجبوا عن رؤية الله يوم القيامة ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾ يقول الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره: «فتح القدير» عند هذه اللآية قال: «**قَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ أَنَّهَا كَثُرَتْ مِنْهُمُ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبُ فَأَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ، فَذَلِكَ الرَّيْنُ عَلَيْهَا. قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ حَتَّىٰ يَعْمَىٰ الْقَلْبُ**» وكلام الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ أخذه من الحديث الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ فإنَّ ابن رجب ذكر الحديث الذي فيه تفسير هذه الآية وهو مُبيّن لما ذكره المصنف من أنَّ كثرة الذنوب تورث قسوة القلوب والعياذ بالله.

وفي «المسند» والترمذي، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّىٰ يَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» وقال الترمذي: صحيح.

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ» فالعبد إذا أذنب ذنبا فإنَّ ذلك الذنب يترك في قلبه نقطة سوداء «فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ» والتوبةالرجوع عن الذنب والمعصية، مثل قوله هنا «نَزَعَ» ذكرها هنا تأكيدا للتوبة والرجوع عن المعصية «وَاسْتَغْفَرَ» يعني طلب من الله أن يغفر له «صُقِلَ قَلْبُهُ» أي أُذهب ما فيه من أثر المعصية، فالمعصية أحدثت نقطة سوداء في قلبه فإذا تاب منها فإنَّ تلك التوبة والاستغفار تكون سببا لصقل قلبه فيُذهب ما في قلبه من أثر المعصية، حيث يُنظف ويُطهَّر من تلك النقطة السوداء «وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّىٰ يَعْلُوَ قَلْبَهُ» أي وإن ارتكب العبد ذنبا آخر نُكت في قلبه أيضا نُكتة أخرىٰ سوداء في قلبه، ولا يزال العبد هكذا يعصي الله ويرتكب الذنوب ويُصِّر عليها حتىٰ يصير قلبه كلّه أسودا من كثرة الذنوب والمعاصي والإصرار عليها «فَذَلِكَ الرَّانُ» أي الصدأ والغشاوة التي تعلو القلب والتي ذكرها الله في قوله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ نقل صاحب تُحفة الأحوذي عن ابن الملك أنَّه قال: «**هَذِهِ الْآيَةُ مَذْكُورَةٌ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ لَكِنْ ذَكَرَهَا ﷺ تَخْوِيفًا للمؤمنين كي يحترزوا عن كثرة الذنب كيلا تَسْوَدَّ قُلُوبُهُمْ كَمَا اسْوَدَّتْ قُلُوبُ الْكُفَّارِ وَلِذَا قِيلَ الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ قَوْلُهُ**» انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللهُ. وهذا الكلام في بيان إيراد هذه الآية التي هي في حق الكفار، والنبي ﷺ إنما ذكر المؤمن فقال: «إنما المؤمن» وذكر آية في حق الكُفّار، والسبب هو تخويف المؤمنين حتىٰ يحترزوا من كثرة الذنوب فلا تسوَّد قلوبهم كما اسوَّدت قلوب الكفار والعياذ بالله، فالشاهد أنَّ الحديث دَّل علىٰ أنَّ المعاصي تجعل القلب أسودا وإذا صار القلب أسودا كان من أشد القلوب قسوة والعياذ بالله، وهذا كله بسبب الذنوب والمعاصي.

قال بعضُ السلف: البدن إذا عَرِيَ رقَّ، وكذلك القلب إذا قلت خطاياه أسرعت دمعتهُ.

وفي هذا المعنىٰ يقول ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَيُورِثُك الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَالْخَيْرُ لِلنَّفْسِ عِصْيَانهَا

ثم نقل هذا القول عن السلف وهو تأكيد لما أُخذ من الحديث وهو أنَّ الذنوب والمعاصي هي سبب لقسوة القلوب وقوله بعض السلف: «البدن إذا عَرِيَ رقَّ» إذا عَرِيَ أي إذا تعرّىٰ بنزع الثياب عنه أو عن بعضه، فهذا الذي يبقىٰ عاريا يرّق.

«وكذلك القلب إذا قلَّت خطاياه أسرعت دمعتهُ» والمراد كذلك القلب إذا عَرِيَ من الذنوب بقلتها وعدم الإصرار عليها رقَّ، والقلب الرقيق اللين تدمع عين صاحبه ولذلك قال «أسرعت دمعته» فهذا القلب الرقيق اللين تدمع عين صاحبه، وأما إذا لم يتعرّىٰ هذا القلب من الذنوب بل كثُرت عليه الخطايا وغطّته حتىٰ صار قاسيا أقحطت عين صاحبه بعد ذلك.

ثم ذكر أبياتا لابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ، بيّن فيه أن الذنوب سبب لموت القلب «رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ» وهي سبب لأمر آخر وهو الذُّل «وَيُورِثُك الذُّلَّ إِدْمَانُهَا» أي أنَّ الذنوب سبب للذُّل لأنَّ العزَّ كل العزِّ إنما هو في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ» وحياة القلوب في ترك المعاصي والتوبة منها إن وُقع فيها فهذا السبب الذي ذكره هنا لقسوة القلب وهو كثرة الذنوب.

وأقول إنَّ كثرة الذنوب هي من أهم الأسباب المذكورة التي تُؤثر في القلوب وتجعلها قاسية، لأنَّ الذنوب لها آثار عظيمة علىٰ القلوب، ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه النفيس «**الجواب الكافي**» ذكر كثيرا من آثار الذنوب علىٰ القلوب، أنا أنقلها لكم مختصرة بلا شرح لتعلموا خطورة الأمر وعِظم آثار الذنوب علىٰ القلب، وإن كان ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ذكر آثار الذنوب مطلقا لكن أنا أتكلم عن آثار الذنوب علىٰ القلوب فقط فهذا الذي نقلته مختصرا.

قال ابن القيم:« **وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمضرّة بالقلب والبدن والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله** –وأنا قلت سأتكلم عن المضرة بالقلب–

فمنها: حرمان العلم، فإنّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبيّن الله.

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقةً، يحسّ بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهمَّ.

ومنها: أنّ المعاصي توهن القلب والبدن.

ومنها -وهو من أخوفها علىٰ العبد- أنها تُضعِف القلبَ عن إرادته ، فتقوىٰ إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا إلىٰ أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية.

ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحُها، فتصير له عادةً، فلا يَستقبح من نفسه رؤيةَ الناس له، ولا كلامَهم فيه.

ومنها: أنَّ الذنوب إذا تكاثرت طُبِعَ علىٰ قلب صاحبها، فكان من الغافلين.

ومن عقوباتها: أنها تُطفئ من القلب نار الغيرة.

من عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير.

ومن عقوبات الذنوب: أنّها تُضْعِف في القلب تعظيمَ الربّ جل جلاله.

ومن عقوباتها: أنها تُضْعِفُ سيرَ القلب إلىٰ الله والدار الآخرة، أو تعوِّقه.

ومن عقوباتها: أنها تصرِفُ القلبَ عن صحّته واستقامته إلىٰ مرضه وانحرافه.

ومن عقوباتها: أنّها تُعمي بصرِ القلب، وتطمس نوره، وتسدّ طرق العلم، وتحجب موادّ الهداية.

ومنها: الخسف بالقلب، كما يخسف بالمكان وما فيه.

ومنها: مسخ القلب، فيُمسَخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب علىٰ قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته»

هذه ذكرها ابن القيم ﷺ وكلها من آثار الذنوب علىٰ القوب، فكيف إذا علمت آثار الذنوب علىٰ غير القلوب، علىٰ البدن وعلىٰ العبد كله، فإنّه ولا شك يدل علىٰ خطورة الذنوب، فتتابع الذنوب وطول الإقامة عليها من غير توبة من الله ورجوع إليه هذا يُقسي القلوب -أيها الإخوة- ولهذا ذكر ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ من أسباب قسوة القلب كثرة الذنوب.

وأمَّا مزيلاتُ القسوة، فمتعددة أيضـًا:

«وأمَّا مزيلاتُ القسوة » أي ما تُزال به القسوة، وهذا هو القسم الثالث من هذه الرسالة، فقد قلنا في الدرس الأوّل أنَّ هذه الرسالة تضمنت ثلاثة أمور: أولا: تضمنت الكلام عن ذمِّ القسوة، وثانيا: عن أسباب القسوة، وثالثا: عن مزيلات القسوة وهذا هو أوان بيانه من كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

«فمتعددة أيضـًا» أي متعددة كأسباب القسوة، أي ماتُزال به القسوة هو كثير أيضا، وهذا فيه أنَّ العبد يسعىٰ ويحرص علىٰ أمورٍ تُزال عنه وتُعالج بها قسوة القلوب، وهذا من الحرص علىٰ ما ينفعه فيحرص علىٰ هذه الأمور التي تزيل القسوة من قلبه كما قال النبي : «**احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**» وتعاطي هذه المزيلات التي يشير إليها رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو من الحرص علىٰ ما ينفع ولا شك، ثم إنَّ العبد ينبغي أن لا يغفل عن الاستعانة بربه والالتجاء إليه ودعائه فهو يجمع علىٰ الحرص بما ينفع والأخذ بهته المزيلات للقسوة، ويستعين بربه ويلتجأ إليه ويدعوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والدعاء هو من أعظم وسائل إصلاح القلوب، فالقلوب -أيها الإخوة- هي بيد الله تعالىٰ يُصرفها كيف يشاء كما قال: ﷺ:«**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**» والحديث عند الإمام مسلم.

ولهذا أرشدنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ هذه الوسيلة العظيمة في كتابه ألا وهي دعائه، أن يُصلح قلوبنا وأن لا يُزيغها كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**﴾.

والنبي ﷺ علّما وأرشدنا إلىٰ هذه الوسيلة العظيمة فقد كان عليه الصلاة والسلام يدعو ربه تعالىٰ ليصلح قلبه وأدعيته في هذا الباب كثيرة منها قوله ﷺ: «**اللهم يا مُصرف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك**» والحديث رواه مسلم. وأحاديث أخرىٰ كثيرة كان يدعو فيها ربه صلاح قلبه ويستعيذ بالله من قلب لا يخشع، وقد ذكرنا جملة منها في درس مضىٰ، ونأخذ منها أنَّ النبي ﷺ يُعلِّم أمته هذه الوسيلة العظيمة من وسائل إصلاح القلوب وإصلاحها وهي دعائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهكذايتبيّن لنا عِظم دعائه تعالىٰ وسؤاله إصلاح قلوبنا ومداواتها، فهو من أعظم الوسائل ولا شك أنَّ العبد إذا لجأ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصدق وإخلاص وانطرح بين يدي مولاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ داعيا صلاحا قلبه داعيا بحضور قلب متحريا أوقات الإجابة فما أقرب أن يُجاب، فيصلح الله تبارك وتعالىٰ قلبه ويثبّته فلا يزيع أبدا، بل إنّ الدعاء عموما هو من العبادات

الجليلة التي أمرنا الله بها فربنا ﷻ يُحبها ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ هذا من لطف ربنا بنا دعانا لما فيه صلاح ديننا ودنيانا فأمرنا بدعائه ووعدنا بأنه يستجيب لنا. ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ ثم توّعد من استكبر عنه أن يُدخله جهنم ذليلا حقيرا يجتمع عليه العذاب والإهانة جزاء علىٰ الاستكبار علىٰ دعاء الله ﷻ ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وقد حثنا نبينا ﷺ علىٰ الدعاء وهذا لعظمه، قال ﷺ «**إنّ الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء**»والحديث رواه الإمام الترمذي.

ففي هذه الأيام الذي ابتلينا بها بهذا الفيروس حَرِّي بنا -أيها الإخوة- أن نتضرع إلىٰ الله ﷻ وأن نحرص علىٰ دعائه جلّ في علاه أن يرفع عنا هذا البلاء وأن يحمي المسلمين منه وأن يشفي مرضاهم وأن يُوفق عباد الله جلّ وعلا القائمين علىٰ صحة المسلمين وعلىٰ نجاتهم من أطباء وغيرهم، فألحّوا علىٰ ربكم ﷻ بالدعاء وتوجهوا إليه بصدق وإخلاص وبقلوب حاضرة محسنين الظن بربكم ﷻ وأنه يجيبكم جلّ في علاه، فإنَّ الله يجيب عبده. فالنبي ﷺ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ ، وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَىٰ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا .** » -فلما سمع الصحابة مثل هذا- **قَالُوا : إِذًا نُكْثِرُ . قَالَ : اللهُ أَكْثَرُ** » والحديث عند البخاري في الأدب المفرد. فالذي يدعو ربه علىٰ خير كبير ولا شك.

ولهذا من الخطأ أن يترك العبد هذه العبادة الجليلة، من الخطأ أن يقول لغيره: ادعو الله لي، ويُفرّط هو في دعاء الله عزّ وجلّ، فعليك أن تدعو ربك سبحانه قاصدا التقرب إليه بهذه العبادة الجليلة العظيمة الذي قال فيها النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة** » وهذا أمر مهم تنبهوا إليه -أيها الإخوة- فكثير من المسلمين يغفلون عن قصد التقرب إلىٰ الله بالدعاء، يكون قصدهم مُنصرفا إلىٰ حصول مطلوبهم فيسألون الله شيئا فيريدون حصول ذلك الشيء، فيفوتهم بذلك أمر عظيم وهو قصد التقرب إلىٰ الله جلّ وعلا بدعائه.

فإذا دعا العبد ربه تعالىٰ لمصلحته ومنفعته وحوائجه فلا يظن ذلك هو المقصود فيرىٰ إن حلصت حاجته التي دعا من أجله قد حصل المراد، وإن لم تحصل فقد ضاع سعيه، فهذا ظن غالط -أخي المُسلم- فالنبي ﷺ أخبرنا أنَّ الدعاء عبادة، سواء أُجيب العبد إلىٰ سؤاله أم لم يُجب، أي لم يرىٰ إجابته في الدنيا، فإنَّ مُجرد رفعه ليديه وسؤاله لمولاه هو عبادة يتقرب بها إلىٰ الله جلّ وعلا، عبادة تتقرب بها إلىٰ الله كالصلاة والتصدّق وغير ذلك، وعليه أن يكون قصدك من دعائك هو التقرب إلىٰ الله

ﷻ وبهذا تكون غانما في كل الأحوال، ولهذا قال الصحابة للنبي ﷺ: «إذا نُكثر» أي من الدعاء قال: «الله أكثر» أي الله أكثر إجابة من دعائكم أو أكثر ثوابا وعطاءﷻ.

وإنَّ كثيرا منّا يا عباد الله يلجأ إلىٰ الله بالدعاء بقضاء حوائجه كأن يكون مريضا فيسأله الصحة أو فقيرا فيسأله الغنىٰ أو مبتلىٰ فيسأله العافية فهذا لا شكّ أنه أمر طيب، لأنه توجه لربه يسأله حاجاته، لكن العجب أيها الإخوة في غفلتنا عن سؤاله حياة قلوبنا وهو من أهمّ الأمور التي يعتني بها، ومدار حديثنا كله في هذه الرسالة حول هذا الأمر هو العناية بالقلوب والحرص علىٰ دفع القسوة عنها، فكثير من الناس يغفلون عن الدعاء بصلاح قلوبهم، يسألون الصلاح لأبدانهم، يسألون الله جلّ وعلا مالا، يسألون الله قضاء الحاجات، يسألون الله من خيري الدنيا والآخرة، لكن يغفلون عن هذا الأمر المهم الذي هو من خيري الدنيا والآخرة أيضا، وهو سؤال الله جلّ وعلا حياة القلوب، ونحن نتكلم عن الدعاء الذي هو وسيلة عظيمة من وسائل إصلاح القلوب، وقد قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «**العجب مِمَّن تعرض لَهُ حَاجَة فَيصْرف رغبته وهمته فِيهَا إِلَىٰ الله ليقضيها لَهُ وَلَا يتَصَدَّىٰ للسؤال لحياة قلبه من موت الْجَهْل والإعراض وشفائه من دَاء الشَّهَوَات والشبهات وَلَكِن إِذا مَاتَ الْقلب لم يشْعر بمعصيته** » هذا كلام بديع يذكر فيه التعجب من أنَّ المرء يتوجه إلىٰ الله ويسأله حاجاته فهذا شيئ جميل فهو عبادة يُتقرب بها إلىٰ الله عزَّ وجلّ، لكنه لا يسأل الله جلّ وعلا الحياة لقلبه من موت القلب والإعراض وشفائه من داء الشهوات والشبهات ولهذا قال: «**وَلَكِن إِذا مَاتَ الْقلب لم يشْعر بمعصيته**».

فاتقوا الله إخوتي واحرصوا علىٰ الدعاء بقصد التقرب إلىٰ الله جلّ وعلا، إسألوا الله كل شيئ إسألوه أن يصلح قلوبكم وأن يثبتها علىٰ دينه فهذا من أعلىٰ وأغلىٰ المطالب. وإنّي أوصي إخواني المستمعين بالإخلاص في الدعاء مع الرغبة والرهبة وحضور القلب، ادعوا ربكم بعزم وجزم وأنتم موقنون بالإجابة، وتجنبوا رعاكم الله موانع الإجابة والتي من أعظمها أكل الحرام، وإياكم والاستعجال في الدعاء لأنه من موانع الإجابة أيضا. نسأل الله ﷻ أن يُصلح قلوبنا ونعوذ به جلّ في علاه من قلوب لا تخشع. اللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام إرفع عنا الوباء والبلاء يا رب العالين يا سميع الدعاء. اللهم اشف مرضىٰ المسلمين وعاف مبتلاهم يا رب العالمين. اللهم وفق أطباءنا للقيام بحماية المسلمين. اللهم وفقهم يا ذا الجلال والإكرام علىٰ القيام برعاية مرضىٰ المسلمين يا سميع الدعاء يا ربنا. وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليه. والحمد لله رب العالمين.

وأمّا مزيلاتُ القسوة، فمتعددة أيضـًا:

فمنها: كثرةُ ذكر الله الَّذِي يتواطأ عليه القلب واللسان.

فمن أعظم ما يزيل قسوة القلب كثرة ذكر الله تعالىٰ، وهذا في مقابل سبب القسوة التي مرّ معنا وهو: كثرة الكلام بغير ذكر الله ﷻ، وذكرنا قول عبد الله بن عون «ذكر الله دواء وذكر الناس داء» فذكر الله جلّ وعلا دواء القلوب من قسوتها، لأنَّ ذكر الله عزّ وجلّ هو حياة القلوب، ولا حياة للقوب إلا به فقد قال النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت** » كما في الحديث الذي عند البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وذلك لأنّ الذي يذكر الله تعالىٰ قد أحيا الله قلبه بذكره وشرح له صدره فكان كالحي، وأما الذي لا يذكر الله فإنه لا يطمئن قلبه والعياذ بالله ولا ينشرح صدره للإسلام فهو كمثل الميت**» والإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الوابل الصيّب» يقول عن ذكر الله عزّ وجلّ: « **أنّه يورث حياة القلب، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالىٰ روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟** » ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والقلب يصدأ كما تصدأ المرآة وجلاءه بالذكر**» فجلاء ذلك الصدأ ذكر الله تعالىٰ.

يذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ ذكر الله تعالىٰ شفاء للقلوب من قسوتها قال: «ذكر الله الَّذِي يتواطأ عليه القلب واللسان» وهذا من أعظم فوائد الذكر أنّه يداوي القلوب، وإلا فذكر الله عزّ وجلّ له فوائد أخرىٰ كثيرة جدا، عدد العلامة ابن القيم في كتابه «الوابل الصيّب من الكلم الطيّب» فوائد عظيمة تزيد علىٰ سبعين فائدة لذكر الله ﷻ، وقد لخصها الشيخ عبد الرزاق البدر حفظه الله في بداية كتابه «فقه الأذكار والأدعية» ولا شك أنَّ من يقف علىٰ هذه الفوائد العظيمة يزداد حرصه علىٰ ذكر الله وتعظُم رغبته إلىٰ المحافظة عليه، ومن هذه الفوائد أنّ ذكر الله عزّ وجلّ يزيل قسوة القلب وهنا ذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمرا مهما في ذكر الله ﷻ وهو تواطؤ القلب واللسان عند ذكر الله، وهو أمر مهم لأنّ الذكر لا يكون تاما إلا إذا تواطئ عليه القلب واللسان، فذكر الله عزّ وجلّ يكون علىٰ وجهين:

- ذكر تام وهو ما تواطئ عليه القلب واللسان
- وذكر ناقص وهو ما كان باللسان مع غفلة القلب.

وكثير من الناس -نسأل الله أن يعاملنا جميعا بعفوه- عندهم ذكر الله باللسان مع غفلة القلب، تجده يذكر الله وقلبه يذهب يمينا وشمالا، يذهب في عمله أو في بيعه وشراءه، وإن كان هذا الذي يذكر الله بلسانه مأجورا علىٰ كل حال، لكن ينبغي أن يُحرص علىٰ الذكر التام الذي يكون فيه تواطئ القلب واللسان، فيكون ذكرا لله باللسان مع القلب أيضا، وقد قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ متكلما عن أنواع الذكر، قال: «**تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر. وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة. فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان** » فأفضل الذكر ما كان باللسان مع حظور القلب، ثم يليه الذكر بالقلب فقط، لأنَّ الذكر بالقلب له ثمرات عظيمة، فذكر الله وحده هذا يفضي ويبعث علىٰ الخوف من الله وإلىٰ مراقبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم يليه الذِكر باللسان وهو الدرجة الثالثة، ذكر باللسان فقط مع انشغال القلب، وهذا أدنىٰ الدراجات لأنَّ الإنسان إذا كان يذكر الله بلسانه فقط مع غفلة القلب وانشغاله فإنَّ ثمرة هذا الذكر تكون ضعيفة، حيث أنّه لا يورث الخوف والمراقبة ولا يدفع إلىٰ الطاعة والإمساك عن الطاعة والمعصية، فالذكر باللسان وحده صاحبه نقول مأجور لأنّ هذه عبادة قولية، لكن من جهة تحقيق الثمار المرجُوَّة من ذكر الله عزّ وجلّ إذا كان يذكر الله باللسان مع غفلة اللسان وعدم حضوره فإنّه لا يحقق الثمار المرجوة من الذكر، فمن هذه الجهة كان ذكرا ناقصا.

يقول القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: «**وَذِكْرُ اللهِ تَعَالَىٰ ضَرْبَانِ ذِكْرٌ بِالْقَلْبِ وَذِكْرٌ بِاللِّسَانِ** » ثم قال «**وَأَمَّا ذكر اللسان مجردا فهو أضعف الأ ذكار وَلَكِنْ فِيهِ فَضْلٌ عَظِيمٌ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الأحاديث**» وكلام القاضي ذكره النووي رَحِمَهُ اللهُ في شرح مسلم.

ويقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «**ثُمَّ الذِّكْرُ يَقَعُ تَارَةً بِاللِّسَانِ وَيُؤْجَرُ عَلَيْهِ النَّاطِقُ وَلَا يُشْتَرَطُ اسْتِحْضَارُهُ لِمَعْنَاهُ**» أي لا يشترط أن يستحظر معنىٰ ما يتكلم به، يؤجر علىٰ إشغال لسانه بذكر الله عزّ وجلّ، ثم قال: «**وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ أَنْ لَا يَقْصِدَ بِهِ غَيْرَ مَعْنَاهُ**» لكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه، فإذا تكلم به بلسانه لا يقصد به معنىٰ آخر وإن لم يستحظر معناه، ثم قال ابن حجر: «**وَإِنِ انْضَافَ إِلَىٰ النُّطْقِ الذِّكْرُ بِالْقَلْبِ فَهُوَ أَكْمَلُ فَإِنِ انْضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ اسْتِحْضَارُ مَعْنَىٰ الذِّكْرِ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ تَعَالَىٰ وَنَفْيِ النَّقَائِصِ عَنْهُ ازْدَادَ كَمَالًا** » فلا شك أنّ هذه المراتب التي ذكرها ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ كالتي أشرنا إليها سابقا، لكن هو زاد شيئا آخر، فإذا كان الذكر باللسان فقط حتىٰ وإن لم يكن ثمَّة حظور للقلب ولم يكن ثمَّة استحضار للمعاني دون أن يصرفها إلىٰ معاني أخرىٰ فهذا يؤجر عليه صاحبه لكنه ليس ذكرا تاما فإذا زاد علىٰ ذلك

حضور القلب فهذا أكمل، فإن جمع بين ذكر الله عزّ وجلّ بلسانه وقلبه واستحضار لمعاني ما يتكلم به فإنّ هذا يزداد به كمالا وهذا أعلىٰ مراتب ذكر الله الذي يكون به النفع، فملخص ذلك أنّ الناس مع الذكر أربعة أقسام:

الأول: من يذكر الله بقلبه ولسانه، فهذا هو المأمور به، وهو أفضل الدرجات وقلنا يعظُم إذا كان مستحضرا للمعاني.

الثاني: من يذكر الله بقلبه، أما إن كان عاجزا عن الذكر باللسان فهذا مثل الأول كالذي لا يستطيع أن يتكلم باللسان فإذا ذكر الله بقلبه فهذا كالأول، لكن إذا ترك الذكر باللسان مع القدرة عليه فهذا قد ترك الأفضل، وهذه الدرجة الثانية.

الثالث: من يذكر بلسانه فقط، وهذا أضعف الذكر لكن قلنا صاحبه مأجور فالنبي ﷺ قد قال للرجل: «**لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله**» يعني إذا ذكر الله بلسانه فهذا يؤجر عليه، لكن قلنا هو ذكر ناقض.

الرابع: وهذا القسم الرابع من الناس -أعاذني الله وإياكم أن نكون منهم- من أعرض عن الذكر، لا بقلبه ولا بلسانه، هذا حال الخاسرين نسأل الله عزّ ووجلّ السلامة والعافية.

فالحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبّه علىٰ أنّ الذكر الذي يُثمر زوال قسوة القلب هو الذكر الذي يتواطئ فيه القلب مع اللسان.

وعليه إذا أردنا الصلاح لقلوبنا وجب علينا أن نحرص علىٰ ذكر الله عزّ وجل وأن لا نجعل ألسنتنا تفتر عنه، وأن نذكره بقلوب حاضرة فبهذا سيجد العبد لذّة عظيمة في ذكره لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المعلَّىٰ بن زياد: إِنَّ رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوه قلبي، قال: أدنه من الذكر.

هذا الرجل شكىٰ إلىٰ أبي سعيد الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ شكىٰ إليه قسوة قلبه فقال له: «أدنه من الذكر» أي قرّبه من الذكر، لأنّ الدُنو هو القرب فقال: «أدنه من الذكر» أي قربه من الذكر، تقول دنا الشيئ من الشيئ دُنوا ودناءة، يعني إذا قرب فهو هنا قال: «أدنه من الذكر» يعني قرّبه من الذكر.

والشاهد من كلامه أنّه دلّه علىٰ ذكر عزّ وجلّ ليزيل قسوة قلبه فتوافقق مع ما ذكره ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ ذكر الله عزّ وجلّ يزيل قسوة القلوب.

وقال وهب بن الورد: نظرنا في هذا الحديث، فلم نجد شيئًا أرق لهذه القلوب ولا أشد استجلابًا للحق من قراءة القرآن لمن تدبره.

وقال يحيىٰ بن مُعاذ، وإبراهيم الخواص: دواءُ القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرَّع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

فأثر وهب بن الورد أخبر فيه أنّ أعظم شيئ لرقة القلب قراءة القرآن لمن تدبره، وقراءة القرآن من ذكر الله عزّ وجلّ.

وأما أثر يحيىٰ بن معاذ وإبراهيم الخواص ذُكر فيه خمسة أدوية للقلوب

الدواء الأول: قراءة القرآن بتفكر وهذا من ذكر الله عزّ وجلّ وهو الشاهد.

والثاني: خلاء البطن: وهذا يتوافق مع ما ذكره ابن رجب وأشرنا إليه في الدرس الماضي، فكثرة الأكل من أسباب قسوة القلب.

وقيام اليل والتضرع عند السحر، لعظم المناجاة التي تكون فيه.

ومجالسة الصالحن، مجالسة الأخيار الذين إذا رؤوا ذُكر الله ﷻ فمجالستهم مما تداوىٰ بها القلوب، والشاهد من الأثرين ذكر قراءة القرآن، قال وهب: «قراءة القرآن لمن تدبره» وفي الأثر الثاني قول يحىٰ بن معاذ: «قراءة القرآن بالتفكر» وقراءة القرآن هي من ذكر الله عزّ وجلّ، فهذا توافق مع ما ذكره الحافظ ابن رجب من أنَّ ذكر الله عزّ وجلّ يزيل قسوة القلوب، وقراءة القرآن بتدبر هي أفضل الذكر، فأفضل الأذكار وأعظمها وأرفعها قدرا قراءة القرآن الكريم الذي هو كلام رب العالمين.

والنبي ﷺ قال: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**» هذه رواية الإمام مسلم. وفي رواية الإمام أحمد قال عليه الصلاة والسلام: «**أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ – وَهُو مِنَ الْقُرْآنِ – أَرْبَعٌ لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**» فهذا يدل علىٰ أنّ قراءة القرآن هي أفضل الذكر، ومما يدل عليه أيضا أنَّ القراءة واجبة في الصلاة، ولا يُعدل عنها إلىٰ الذكر فلا بد من قراءة القرآن اللهم إلا إذا عند العجز فالإنسان الذي لا يقرأ القرآن ولا يحفظ شيئا من القرآن فإنه يُسبح ويحمد الله ﷻ ويذكر الله عزّ وجلّ، لكن إذا كان يحفظ كتاب الله عزّ وجلّ فكان يحفظ الفاتحة وشيئا من القرآن فإنه لا يعدله شيئ من الأذكار في الصلاة وإلا ما صحت الصلاة، وهذا ما

ذكره العلماء من أوضح الأدلة في الدلالة علىٰ أفضلية قراءة القرآن إذ نتكلم عن ذكر الله عزّ وجلّ وأنّه مداو وأنّه مزيل لقسوة القلوب فإنّ أعظم الذكر وأفضله قراءة القرآن بتدبر، قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «**سمعنا أنّ قراءة القرآن أفضل الذكر إذا عُمل به**» والإمام النووي في الأذكار يقول: «**إعلم أن تلاوة القرآن هي أفضل الأذكار والمطلوب القراءة بالتدبر** » وإذا قلنا إنّ القرآن هو أفضل الذكر ينبغي أن نعلم أنّ من الأذكار ما يكون أفضل من قراءة القرآن، وذلك إذا اقترن به ما يجعله كذلك، مثل الذكر المُقيد بوقت، فإذا كان ثَمّة ذكر مقيد بوقت فإشغال وقتك بهذا الذكر أفضل من قراءة القرآن، وإن كان قراءة القرآن هي أفضل الذكر علىٰ الإطلاق فهذا المفضول لوجود تلك القرينة يصير فاضلا ومُقدما، ولهذا سُئل الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ عن قراءة القرآن قيل له: «قراءة القرآن أعجَب إليك أم الذكر؟ فقال للسائل: سل أبا محمد -يعني سعيد بن المسيب- فقال: فسألته: فقال: بل القرآن » يعني القرآن أفضل الذكر فقال الأوزاعي مُعلقا: «إنه ليس شيء يعدل القرآن، ولكن إنما كان من هدي من سلف يذكرون الله تعالىٰ قبل طلوع الشمس وقبل الغـروب» ما معنىٰ ها الكلام وهو يقول أنّ القرآن لا يعدله شيئ ثم يذكر من هدي السلف أنهم يذكرون قبل طلوع الشمس وقبل الغروب أذكار الصباح والمساء؟ فهو أشار رَحِمَهُ اللهُ بهذا إلىٰ أنّ القرآن هوأفضل الأذكار ولا يعدله شيئ لكن الأذكار الواردة في الصباح والمساء وحتىٰ التي بعد أدبار الصلوات وغيرها التي لها وقت تكون في وقتها أفضل، ولهذا قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ أيضا: «**قد يعرض للمفضول ما يجعله أفضل من الفاضل** » كهذا الذي نتكلم عنه قراءة القرآن أفضل وغيره من الأذكار مفضول لكن قد تأتي بعض القرائن والأحوال تجعل المفضول أفضل، قال ابن عثمين: «**مثاله : قراءة القرآن من أفضل الذكر والقرآن أفضل الذكر فلو كان رجل يقرأ وسمع المؤذن يؤذن فهل الأفضل أن يستمر في قراءته أو أن يجيب المؤذن؟ هنا نقول الأفضل أن يجيب المؤذن وإن كان القرآن أفضل من الذكر، لكن الذكر في مكانه أفضل من قراءة القرآن، لأنّ قراءة القرآن غير مقيد بوقت متىٰ شئت فاقرأ لكن إجابة المأذن مربوطة بالمؤذن** » انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللهُ. فأخذنا من هذا أنّ الذكر إذا كان مقيدا بوقت فهو في وقته أفضل من قراءة القرآن، ومن هنا ينبغي أن يُعلم بأنّ ذكر الله عزّ وجلّ يكون عاما ويكون خاصا أيضا.

فالذكر العام يدخل فيه أمور كثيرة: يدخل فيه الصلوات فهي من الذكر، تعلم العلم من الذكر وتعليمه، حمد الله والثناء عليه، يدخل في الذكر العام.

وأما الذكر الخاص: فهو كحمد الله والثناء عليه وتسبيحه وتهليله وتكبيره وتحميده، فهذا الذي يُقرن بالدعاء إذا قيل: «الأدعية والأذكار» فيقصدون بهذه الأذكار هذا الذكر الخاص كالتحميد والسبيح والتهليل والتكبير وغيره، وهذا الذكر الخاص الذي نتكلم عليه الآن هو نوعان أيضا:

النوع الأول: نوع مُطلق في كل وقت وهو الذي يُشرع للإنسان دائما وهو الذي وصىٰ به النبي ﷺ الرجل فقال له: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله» وهو الذي عنته عائشة رضي الله عنها بقولها: «**كان النبي ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحيانه**» أي في كل حين، فذكر الله هنا مطلق ولا يتقيد بعدد ولا بحال بل هو علىٰ حسب نشاط الإنسان، وهذا أفضله قراءة القرآن.

النوع الثاني: فهو ذكر مقيد إما أن يكون مقيد بعدد أو مقيد بحال من الأحوال وهو كثير منها: أذكار الصلوات في الركوع والسجود وبعد السلام، أذكار دخول البيت والخروج منه، أذكار الدخول للمسجد والخروج منه، أذكار النوم والاستيقاظ، أشياء كثيرة شرعها الله لعباده وبينها النبي ﷺ وهي شُرعت لأجل أن يكون العباد دائما علىٰ ذكر الله عزّ وجلّ، وهذه تكون أفضل من قراءة القرآن في وقتها، فإنّ الذكر الذي بعد الصلاة وهذه الأذكار التي أشرت إلىٰ بعضها في وقتها تكون فاضلة وتكون أفضل من قراءة القرآن، فالشاهد -أحسن الله إليكم- من الأثرين اللذين أوردهما الحافظ ابن رجب رحمه الله أنّ قراءة القرآن بتدبر من أنفع مايكون للقلوب، لأنّ ابن وهب قال: «من قراءة القرآن لمن تدبره» وفي أثر يحي قال: «قراءة القرآن بالتفكر» يعني بالتدبر، وقد أحسن الإمام ابن القيم إذ قال في مفتاح دار السعادة: «**لا شيء أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورثُ المحبةَ والشوقَ والخوفَ والرجاءَ والإنابةَ والتوكُّل والرضا والتفويض والشكرَ والصبرَ وسائر الأحوال التي بها حياةُ القلب وكمالُه، وكذلك يزجرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فسادُ القلب وهلاكُه. فلو عَلِمَ الناسُ ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتىٰ مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مئة مرَّة، ولو ليلة؛ فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعىٰ إلىٰ حصول الإيمان وذَوْقِ حلاوة القرآن**» فهذا -أيها الإخوة- أثر القرآن إذا قُرئ بتدبر وتفكر، والشيئ الذي ينتبه إليه فيها ذُكر في الأثرين وفي كلام الإمام ابن القيم رحمه الله هنا، أنّهم ذكروا قراءة القرآن بتدبر وتفكر، هذه القراءة النافعة للقلوب دون غيرها، إذا قلنا بأنَّ ذكر الله أفضله هو قراءة القرآن هو ممّا يزيل

قسوة القلوب فإنّنا نعني قراءة القرآن بتدبر وتفكر، الله عز وجل يقول ي كتابه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فهذه دعوة إلىٰ تدبر القرآن لأنّ به يكون انتفاع القلب، قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية: «**ولمّا بين تعالىٰ لعباده ما بين، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبا لأن يبادروا إلىٰ ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله علىٰ جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ علىٰ الإطلاق**» انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللهُ. وقوله: «ومواعظ القرآن أعظم المواعظ علىٰ الإطلاق» المواعظ التي تؤثر في القلوب فقراءة القرآن بتدبر أعظم ما تُداوىٰ به القلوب من أمراضها وقسوتها، كيف لا يكون القرآن شفاء لأمراض القلوب ومزيلا لقسوتها والله عزّ وجلّ الذي أنزل القرآن يخبرنا في كتابه في ثلاثة مواضع أنّ القرآن شفاء.

في سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾

وفي سورة فُصلت : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًىٰ وَشِفَاءٌ﴾.

وقال تعالىٰ في سورة يونس وهو الموضع الثالث: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولذلك إقرؤوا -أيها الإخوة- كلام الله عزّ وجلّ بتدبر إقرؤوه وأنتم موقنون بأنه شفاء، القرآن ليس دواء لأنّ الدواء قد يُشفىٰ بسببه الإنسان وقد لا يُشفىٰ، أما القرآن فالله عزّ وجلّ قال بأنّه شفاء كما نبه علىٰ هذا الشيخ سليمان الرحيلي حفظه الله تبارك وتعالىٰ، فالقرآن ليس دواء بل هو شفاء، وأنت ينبغي أن تتيقن إذا قرأت القرآن أنّه شفاء فاقرأه وأنت تعلم علم يقين أنّه يُشفىٰ به قلبك، فالقرآن شفاء لما في القلوب من القسوة، شفاء لما في القلوب من أمراض الشبهات، شفاء لما في القلوب من أمراض الشهوات، وأنت إذا تأملت كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقرأته فإنك تجد له أثرا عظيما علىٰ قلبك، كيف لا يكون له أثر ونحن نعلم بأنّ القرآن يزيد في الإيمان، والإيمان في القلب، فإذا قرأ العبد القرآن أو سمعه وتدبّره وتفهّمه زاد إيمانه والله سبحانه وتعالىٰ قال :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وقال أيضا :﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ دلّت هذه الآيات على أنّ القرآن يزيد الإيمان في القلب، والإيمان هو زينة القلب كما قال الله عزّ وجلّ: **﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم حبب إلينا الايمان وزينه في قلوبنا** » فإذا امتلأ القلب بالإيمان وتزيّن به صار هذا القلب حيا صحيحا سليما ينفع العبد يوم القيامة، فهذا أثر القرآن في القلوب، والقرآن شفاء لأمراض القلوب لأنّه يهدي للتي هي أقوم: **﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾** فمن اهتدى بهدايات القرآن هداه الله لكل خير، ومن ذلك الخير إصلاح قلبه، فالله يُصلح قلبه ويشفيه له من أعطابه، فالقرآن شفاء لأمراض القلوب، لأنّ من تمسك به فإنه يسعد في الدنيا والآخرة فلا يضل ولا يشقى كما قال الله عزّ وجلّ: **﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾** فمن أعرض عن القرآن فإنّ له معيشة ضنكا في الدنيا والآخرة، قال ابن كثير في معنى المعيشة الضنكا قال :«**فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ وَلَا انْشِرَاحَ لِصَدْرِهِ** » لأنّ هذا قد أعرض عن كلام ﷻ وقلبه لم يَخلص لليقين والهدى فيبقى في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة كما ذكر ابن كثير رحمه الله، فشفاء القلوب وطمأنينتها في كتاب الله عزّ وجلّ الذي هو نور أنزله الله عزّ وجلّ على نبينا ﷺ ليُخرج به الناس من الظلمات إلى النور **﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** فالقرآن له أثر عظيم في شفاء القلوب وإصلاحها.

لكن اعلموا رحمني الله وإياكم- أنّ تأثير القرآن مشروط بشروط فقد يقرأ الواحد القرآن ولكن لا يجد له أثرا ولا يجد له حلاوة ولذة نقول إنّ هذا لم يُطبق شروط الانتفاع بالقرآن، شروط الانتفاع بالقرآن التي بيّنها الله تعالى في كتابه في قوله **﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** فلا بدّ من سمع مُصغ، ولا بد من قلب حاضر، حتى يتأثر بكلام الله عزّ وجلّ، أما إذا وُجد المانع وهو إشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب فإنّ القلب لا يتأثر بالقرآن، والله ولو قرأت لساعات لا يتأثر بالقرآن لأنّ اللسان يدور في الألفاظ لكن القلب يدور في الآفاق، كيف يتأثر مثل هذا القلب بكلام الله ﷻ، ولهذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «**إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فأجمع قلبك عند تلاوته. وألق**

سمعك. واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه، منه إليه » –الله أكبر– هل إستشعرنا هذا – أيها الإخوة– هل استشعرنا أنّ الله يُكلمنا بالقرآن، يقرأ الانسان القرآن ويتدبر بقلب حاضر حتىٰ يستشعر بأنّ الله يكلمه به ولهذا قال: «**واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه، منه إليه** » فما أعظم هذا لو أيقنّا به تمام الإيقان أحسن الله إليكم.

فاحرصوا علىٰ مداواة قلوبكم بالقرآن إقرؤوه واستمعوا له بقلوب حاضرة وآذان مُصغية، فإنّه و الله له أثر عجيب فاحرصوا علىٰ ذلك.

وأوصي إخواني ونفسي بذلك لأنّ الأمر خطير جدا فإنّ من لم يشفه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه القرآن فلا كفاه الله، الله عزّ وجل يقول في كتابه: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾ ابن سعدي في تفسيره يقول: «**فلا كفىٰ اللّه من لم يكفه القرآن، ولا شفىٰ اللّه من لم يشفه الفرقان** » فالأمر لا شك أنّه خطير جدا، فاحرصوا علىٰ تدبر كلام ربكم عزّ وجلّ إذا قرأتموه أو استمعتم إليه، إحرصوا علىٰ التفكر والتفهم في آياته فإنّ له نفعا علىٰ المرء كله وله نفع لقلب المرء يداوي به مرضه ويزيل به قسوته. فلا كفىٰ الله من لم يكفه القرآن ولا شفىٰ الله من لم يشفه القرآن.

هذا كله لتعلموا أنّه لا يحصل الانتفاع بالقرآن إلا من جمع قلبه عند تلاوته وسماعه، الله عزّ وجلّ بيّن العلّة من إنزال القرآن قال: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ هذه هي الحكمة من إنزال القرآن، الحكمة من إنزال القرآن ليتدبر الناس آياته: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾.

وحال الذين يتلون القرآن حقّ تلاوته قال فيهم الله عز وجل:﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ هذا هو حالهم إذا قرؤوا القرن قرؤوه بتدبر وتفهم وتفكر :﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ**﴾قال الشوكاني في تفسيره: «**يعملون بِمَا فِيهِ** » ولا يكون العمل بما فيه إلا بعد العلم والتدبر والتفهم لآياته، والله أخبر عن حال المؤمنين في القرآن فقال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾. فتدبر القرآن يزيد في الإيمان، ووجه ذلك أنّهم يلقون له السمع مع قلوب حاضرة لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانه فهم يلقون السمع مع قلوب حاضرة، لأجل أي شيءٍ؟ لأجل تدبر وتفهم القرآن.

فعد ذلك يزيد إيمانهم وفي مقابل هؤلاء ذّم الله عزّ وجلّ المعرضين عن تدبر كتابه فقال: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ**﴾ يعني أفلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله ويتأملونه حق التأمل فإنهم لو تدبروه لدلّهم علىٰ كل خير، ولكن قال جل وعلا: ﴿**أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ قلوب قد أُغلق علىٰ ما فيها من الشر وأُقفلت والعياذ بالله.

وقال ﷻ: ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ هكذا يذُم الله ﷻ المحرّفين لكتابه، الأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة وهي الأماني كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقال الشوكاني: «**وقيل الأماني التلاوة**» أي لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم وتدبّر فهنا يذّم الله عزّ وجلّ هؤلاء.

فاحذروا عباد الله أن تكونوا كهؤلاء الذين ذمهم الله، قرؤوا القرآن ولكنهم قرؤوه دون تفهم وتدبر، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ وتدبّر القرآن وتفهمه إذا تُرك فهذا من هجرانه، فترك تدبر القرآن وتفهمه من هجرانه، ذكرها ابن كثير، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في أنواع هجر القرآن وهي أربع قال: «**والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه**» فالذي يقرأ القرآن ولا يتدبر ولا يتفهم فهذا -أيها الإخوة- يُعدّ هاجرا للقرآن من هذه الناحية، وقد توّعد الله عزّ وجلّ المعرضين عن كتابه العزيز بقوله: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ النبي ﷺ الذي بيّن للأمة فضائل القرآن وبيّن أوامر الله تعالىٰ لتدبر القرآن قد كان له من هذا التدبّر النصيب الأوفى والقدح المعلّىٰ، اقرؤوا سيرة نبيكم ﷺ فإنكم ستجدون صورا عظيمة في تدبر كتابه عزّ وجلّ أذكر منها للإعتبار يا إخوة ما رواه الإمام مسلم عن حذيفة قال: «**صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ذاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَح البقَرَةَ، فقلتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فقلتُ: يُصَلِّي بِهَا في رَكْعَةٍ، فمَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَح النِّسَاءَ فَقرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَها، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا إذا مَرَّ بِآيَةٍ فِيها تَسْبيحٌ سَبَّحَ، وَإِذا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بتَعَوُّذ تَعَوَّذَ**» هكذا كان يقرأ نبيكم ﷺ القرآن يقرأ مترسلا ويتدبر كلام ربه وإذا مرّ بآية تسبيح سبّح وإذا مر بسؤال سأل وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّىٰ جِئْتُ إِلىٰ هذهِ الآيَة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هؤُلاءِ شَهِيداً﴾ قالَ:**

«حَسْبُكَ الآنَ» فالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ» لأنّه تدبّر كلام الله فتأثر عليه الصلاة والسلام.

وعن أبي جُحيفة قال: «**قالوا يا رسول الله نراك قد شبت قال شيبتني هود وأخواتها**» قال العلماء: لعلّ ذلك لما فيهن من التخويف الفضيع والتهويل الشديد لاشتمالهن علىٰ حكاية أهوال الآخرة وعجائبها وفضائعها وأحوال الهالكين والمعذَّبين، وماهذا عباد الله إلا نتيجة لتدبّر هته السور التي هي هود وأخواتها.

وأبو ذر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يقول: «**قام النبي ﷺ ليلة بآية يرددها حتىٰ أصبح وهي قوله تعالىٰ : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾** » هذا رسول الله ﷺ يُقدّم التدبر علىٰ كثرة التلاوة فيقرأ آية واحدة فقط في ليلة كاملة.

واسمعوا إلىٰ ما رواه ابن حبان: « **عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: "يَا عَائِشَة ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي "، قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ وَأُحْبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ حِجْرَهُ، قالت: ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ الأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالُ يُؤَذِّنه بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: "أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ....الآية كلها**».

وهو بهذا عليه الصلاة والسلام يدعو الأمة إلىٰ تدبّر القرآن، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها. فهكذا كان نبيّنا ﷺ يتدبر كلام الله عزّ وجلّ، وهذا فيه تعليم للأمة أنّها إذا قرأت كتاب ربها وكلامه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنّها تحرص علىٰ تدبره، فاحرصوا -أيها الإخوة- علىٰ قراءة القرآن واحرصوا علىٰ تدبره لأنّه لا يذوق حلاوة القرآن ولا يُنتفع به في شفاء القلوب إلا من تدبر آياته وفهم معانيه، ولهذا يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: «**إني لأعجب ممن يقرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذّ بقراءته**». نسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا وأن يجعلنا جميعا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن ينفعنا بالقرآن وأن يرفعنا بالقرآن وأن يجعل القرآن العظيم حجة لنا يوم القيامة لا حجة علينا، وأن يوفقنا سبحانه لتدبره وتفكره وتفهمه علىٰ الوجه الذي يرضيه سبحانه، وأن يوفقنا للعمل به إن ربنا لسميع الدعاء.

والأصل في إزالة قسوة القلوب بالذكر قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

وقوله تعالىٰ: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

فهذه الآيات كلها نصٌ في انتفاع القلوب بذكر الله عموما، الآية الأولىٰ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ دلّت علىٰ أنّ ليس للقلوب قرار ولا طمأنينة إلا بذكر الله عزّ وجلّ، ولهذا قال القرطبي في التفسير: «**أي وَهُمْ تَطْمَئِنُّ قلوبهم علىٰ الدوام بذكر الله بألسنتهم** » فهذا أثر الذكر علىٰ القلوب وهذا علىٰ القول بأنّ ذكر الله في الآية هو ذكر العبد لربه من تسبيح وتكبير وتهليل وغير ذلك.

وأما الآية الثانية فالشاهد فيها في قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ فالآية فيها أنّ القلوب تلين عند سماع القرآن وهو من ذكر الله، فتلين لما فيه من الترغيب، كما أنّها تقشعر جلودهم عند سماع الترهيب والتخويف.

وأما الآية الثالثة قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

هذه فيها الحث علىٰ الاجتهاد علىٰ خشوع القلب لله وذلك يكون بذكر الله ومنه قراءة القرآن ومنه قول ابن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فالقلوب تحتاج في كل وقت إلىٰ أن تذكر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإنّ ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين**»

فكل الآيات التي أوردها تتطابق من جهة الدلالة علىٰ ما أراد وهو أنّ كثرة ذكر الله تُعد من مزيلات قسوة القلوب.

وفي حديث عبد العزيز بن أبي روَّاد مُرسلاً، عن النبي ﷺ: «إِنَّ هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد. قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: تلاوةُ كتاب الله وكثرة ذكره».

وهذا نصٌ في أنّ تلاوة القرآن وذكر الله أعظم ما تُداوىٰ به القلوب، إلا أنّ هذا الحديث ضعيف ولا يصح عن نبينا ﷺ.

وما تقدم ذكره كله يدل علىٰ أنّ مما يحصل به جلاء القلوب ذكر الله، وعلىٰ رأسه قراءة القرآن وهذا أوّل المزيلات التي ذكرها الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فنسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا وإياكم من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات إنّ ربنا سميع الدعاء.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

ومنها: الإحسانُ إِلَىٰ اليتامىٰ والمساكين؛ روىٰ ابن أبي الدنيا: ثنا علي بن الجعد، حدثني حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن أبي هريرة: أَنَّ رَجُلًا، شَكَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ: «إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ». إسناده جيد.

وكذا رواه ابنُ مهدي عن حمَّاد بن سلمة، ورواه جعفر بن مُسافر: ثنا مُؤمَّل، نا حماد، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ.

وهذا كأنَّه غيرُ محفوظ عن حمَّاد.

ورواه الجوزجاني: ثنا محمد بن عبد الله الرّقاشي، ثنا جعفر، ثنا أبو عمران الجوني مُرسلاً، وهو أشبه، وجعفر أحفظ لحديث أبي عمران من حمَّاد بن سلمة.

وروىٰ أبو نعيم ، من طريق عبد الرزاق، عن معمر ، عن صاحب له: أنَّ أبا الدرداء كتب إِلَىٰ سلمان: "ارْحَمِ الْيَتِيمَ وَأَدْنِهِ مِنْكَ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَتَاهُ رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟ فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ. فَقَالَ: «أَدْنِ الْيَتِيمَ مِنْكَ، وَامْسَحْ رَأْسِهِ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ وَتَقْدِرُ عَلَىٰ حَاجَتِكَ».

قال أبو نُعيم: ورواه ابن جابر والمُطعم بن المقدام، عن محمَّد بن واسع أنَّ "أبا الدرداء كتب إِلَىٰ سلمان .... " مثله.

فهنا ذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ مزيلا من مزيلات قسوة القلوب ألا وهو الإحسان إلىٰ اليتيم والمسكين، أما اليتيم فهو الصغير الذي فقد أباه، فهذا لا شك أنّه ضعيف لأنّه فقد المعيل له، واليُتم قدّرقدّره الله قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ودين الإسلام قد اعتنىٰ باليتيم أيما عناية، إهتم به إهتماما عظيما أيُما إهتمام، قال النبي ﷺ: «**اللهم إني أُحَرِّج حق الضعيفين ، اليتيم والمرأة**» والحديث عند النسائي وقوله ﷺ: «أُحَرِّج» أي أُلحق الحرج الذي هو الإثم بمن ضيّع حقهما يعني اليتيم والمرأة.

واليُتم ليس عيبا في الإنسان فنبينا ﷺ الذي هو سيد ولد آدم سيد الأولين والآخرين خير من وطئت قدمه الثرىٰ يقول الله له مُذكرا نعمه عليه: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ**﴾ ذلك أنه ﷺ تُوفي أبوه عبد الله وهو حملٌ في بطن أمه، وتُوفيت أمه وهو في السابعة من

عُمره، وتُوفي جدّه وهو في الثامنة من عمره عليه الصلاة والسلام، وكفله عمّه أبو طالب ومازال عليه الصلاة والسلام ينشأ حتىٰ إذا بلغ أشدّه أوحىٰ الله إليه وكلّفه بهذه الرسالة العظيمة، تلكم الرسالة التي أشرقت بها الأرض بعد ظلماتها وتآلفت بها القلوب بعد شتاتها، وأنار الله جلّ وعلا بها البصائر وأخرج بها الأمة من الظلمات إلىٰ النور، فصلوات الله وسلامه عليه، ثُمّ إنَّ الله جلّ وعلا أمر نبينا ﷺ أن يشكره علىٰ هذه النعمة فيقابلها بالشكر قال: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ فكان عليه الصلاة والسلام الذب هو رحمة للعالمين، أرحم وأرفق الناس بالأيتام عليه الصلاة والسلام، فقد حثّ عليه الصلاة والسلام علىٰ كفالة اليتيم والإحسان إليه والرفق به عليه الصلاة والسلام، فقال صلوات ربي وسلامه عليه: «**أنا وكافل التيم في الجنة هكذا، وأشار ﷺ بالسبابة والوسطىٰ وفرّج بينهما شيئا**» كما في الحديث الذي عند الإمام البخاري، يقول ابن الطال رَحِمَهُ اللهُ: «**حق علىٰ من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون فىٰ الجنة رفيقًا للنبىٰ ﷺ في الجنّة ولا منزلة في الجنة أفضل من ذلك**» فحق علىٰ من سمع هذا الحديث أن يعمل به «أنا وكافل التيم في الجنة هكذا» وفي رواية قال ﷺ: «**كافل اليتيم له أو لغيره: أنا وهو كهتين في الجنة** » وقوله: «له أو لغيره» له يعني من قرابته أو لغيره يعني ليس من قرابته ولكل أجر، لكن الأجر يعظم ويزداد إذا كان اليتيم من الأقارب، والدليل علىٰ ذلك ما رواه الإمام مسلم أنّ رسول الله ﷺ قال مرّة للنساء: «**تصدقن يا معشر النساء ولو من حُليكن فسألت امرأة ابن مسعود ﷺ بواسطة بلال أتُجزئ الصدقة عنها علىٰ زوجها وعلىٰ أيتام في حجرها؟ فقال ﷺ: لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة**» فإذا كان اليتيم من الأقارب فهذا يزداد به المرء أجرا إذا حرص علىٰ الإحسان إليه وهكذا نبينا ﷺ يحث علىٰ كفالة اليتيم ويُرغب فيها ويذكر عليه الصلاة والسلام الأجر الجزيل لمن كفل يتيما وهو أن يكون من كفل اليتيم مع نبينا ﷺ في جنّة النعيم، فمن رغب في هذا الثواب العظيم أن يُرافق محمدا عليه الصلاة والسلام في جنات الخلد فعليه بأن يُحسن إلىٰ اليتيم.

وأما إذا لم تجد يتيما فعليك باللقيط، فقلنا أنّ اليتيم هو الذي فقد أباه فنسبه معروف لكنّه فقد أباه قبل البلوغ فهذا يتيم، فإذا لم تجد يتيما تحسن إليه فعليك باللقيط، واللقيط هو ولد حديث الولادة نبذه أهله خوفا إما من مسؤولية إعالته أو فرارا من تهمة الزنا أو رُبّما ضل طريقا فلا يُعرف والداه كما يقول الفقهاء أو لأي سبب آخر، فهذا الصغير الذي يُسمىٰ لقيطا وَلد حديث الولادة فلا كافل له معلوم فإنّ مُلتقطه يستحق أجر ومثوبة كافل اليتيم لأنّه في معناه كما ذكر العلماء، مع التنبيه إلىٰ من وفقه الله إلىٰ كفالة يتيم

أجنبي أو لقيط فإنّه يُعتبر أجنبيا، فهو ليس من المحارم فإذا بلغ هذا اليتيم أو اللقيط فيجب علىٰ زوجته وبناته أن يتحجبن منه، وكذلك إذا كانت يتيمة أو لقيطة فالواجب أن تتحجب.

كما أنّ العلماء لا يختلفون في عدم جواز تبّني اللقطاء مجهولي النسب بحجة الرحمة والعطف كما يتحجج بعض الناس، لكن العلماء لا يرون جواز التبني وهو إعطاء الاسم له، ويتخذ هذا الولد لأمور منها لأجل المرأة عاقرا أو كون الرجل عقيما فيتخذون ولدا ويتبنونه ويُعطيه الرجل اسمه وهذا مما لا يجوز -أعني تبنيه- فهذه الأسباب كلها لا تبيح التبني ولا تجعله حلالا بل يبقىٰ علىٰ حُرمته ولا تترتب عليه أحكام البُنوة الحقيقة لا من جهة الميراث ولا من جهة أي شيئ من أحكام البُنوة، لكن يبقىٰ أجر الإحسان والكفالة التي نتكلم عنه.

ثم ذكر ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الإحسان لليتيم ذكر الإحسان إلىٰ لمسكين، والمسكين هو الذي لا يجد كفايته التامة لسنة وقد يجد شيئا وقد لا يجد وهو يشمل الفقير أيضا، فإنّ الفقير والمسكين إذا ذُكرا جميعا يفترقان في المعنىٰ، فالفقير هو أشد حاجة من المسكين فالفقير هو الذي لا يجد شيئا أو يجد من كفايته دون النصف، والمسكين هو فوق ذلك، المسكين لا يجد الكفاية التامة لكنه يجد النصف فأكثر، فإذا ذكرا جميعا كان هذا هو الفرق بينهما أما إذا ذُكر أحدهما دون الآخر كما في مقامنا هاذا فمعناهما واحد، المسكين يُطلق علىٰ الفقير والفقير يُطلق علىٰ المسكين، تقول تصدقت علىٰ الفقراء أو تصدقت علىٰ المساكين فهما بمعنىٰ واحد.

فهذا المسكين يحتاج إلىٰ إحسان، وأنبّه علىٰ أنّ المسكين حقية ليس هو المُتسول الذي يسأل الناس عند أبواب المساجد أو يسألهم في الطرقات أو يسألهم في مداخل الأسواق وتردّه عطيتهم له إنما المسكين في الحقيقة هو المُتعفف الذي لا يسأل الناس إلحافا الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ هذا هو المسكين حقيقة، هو الذي لا يعرفه الناس ليعطوه فقد قال ﷺ: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِىْ يَطُوفُ عَلَىٰ النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِىْ لاَ يَجِدُ غِنًىٰ يُغْنِيهِ وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ**» هذا هو المسكين حقيقة، هذا المسكين الذي نوصي المحسنين بالحرص علىٰ البحث عنه، وعن تفقده والسؤال عنه من حين لآخر، فهذا الذي يُحرص عليه ويُبحث عنه، كما قال ﷺ في بيان علاماته:

«لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ» فالمُصنف رَحِمَهُ اللهُ ذكر هنا الإحسان إلىٰ اليتيم والمسكين من جُملة مزيلات قسوة القلب، وقد استدل رَحِمَهُ اللهُ بحديثين:

أما الحديث الأول هو حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا، شَكَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ: «إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ». إسناده جيد.» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ كما في الصحيحة. قال عليه الصلاة والسلام: «إِنْ أَحْبَبْتَ» والمخاطب هو الرجل الذي شكىٰ إليه قسوة قلبه «إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ» والمُراد به خلاف القسوة «فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ» فخصص ﷺ اليتيم والمسكين بالذكر، قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ في شرح المشكاة: «**خص اليتيم والمسكين بالذكر؛ تلميحًا لقوله تعالىٰ: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسبغة، يتيمًا ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة﴾ ومراعاتهما من اقتحام العقبة الشاقة؛ لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس. فمن اقتحم تلك العقبة رق قلبه وسمح نفسه في تعاطي كل خير، وفيه أن من ابتلىٰ بداء من الأخلاق الذميمة، يكون تداركه بما يضاده من الدواء. فالمتكبر يداوىٰ بالتواضع، والبخيل بالسماحة، وقاسي القلب بالتعطف والرقة** » انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللهُ. فأفاد رَحِمَهُ اللهُ فائدة نفيسة في باب الأخلاق عموما فمن كان فيه خُلق ذميم فيعالجه بما يُضاده، فمثلا قسوة القلب تُعالج بالعطف والرفق واللين مع الناس فمسح رأس اليتيم إيناسا وتلطفا وإطعام المسكين رأفة ورحمة هذا يؤّثر في القلب ويُذهب قسوته، ولهذا نصح النبي ﷺ كما في هذا الحديث من شكىٰ إليه قسوة قلبه نصحه بالإحسان إلىٰ اليتيم والمسكين، يقول المُناوي رَحِمَهُ اللهُ: «**وفيه من الفوائد أنّ مسح رأسه سبب مخلص من قسوة القلب المبعدة عن الرب فإنّ أبعد القلوب من الله القلب القاسي** » فظهرت دلالة الحديث علىٰ ما أراد الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في أنّ الإحسان إلىٰ اليتيم والمسكين تخلص وتزيل قسوة القلوب.

ثم ذكر الحديث الثاني وهو حديث أبي الدرداء أنه كتب إلىٰ سلمان «ارْحَمِ الْيَتِيمَ وَأَدنِهِ مِنْكَ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَتَاهُ رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟ فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ. فَقَالَ: «أَدْنِ الْيَتِيمَ مِنْكَ، وَامْسَحْ رَأْسِهِ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ وَتَقْدِرُ عَلَىٰ حَاجَتِكَ» وقد صححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ كما في صحيح الجامع والحديث فيه أنّ رجلا اشتكىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له عليه الصلاة والسلام «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟» وهذا إستفهام فيه معنىٰ الشرط أي يا من أحببت، يا من تشتكي قسوة قلبك إن أحببت أن يلين قلبك فادن اليتيم منك، أي

قربه منك، وذلك بأن تعطف وتحنو عليه وتحسن إليه. «وامسح رأسه» مسحك لرأسه تلطفا وإناسا، وهذا أخذ منه العلماء استحباب مسح رأس اليتيم وإكرامه، ودلّ علىٰ استحباب مسح الرأس أيضا حديث عبد الله بن جعفر قال: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَقُثَمَ وَعُبَيْدَ اللهِ ابْنَيْ عَبَّاسٍ، وَنَحْنُ صِبْيَانٌ نَلْعَبُ، إِذْ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ دَابَّةٍ، فَقَالَ: " ارْفَعُوا هَذَا إِلَيَّ " قَالَ: فَحَمَلَنِي أَمَامَهُ، وَقَالَ لِقُثَمَ: ارْفَعُوا هَذَا إِلَيَّ فَجَعَلَهُ وَرَاءَهُ، وَكَانَ عُبَيْدُ اللهِ أَحَبَّ إِلَىٰ عَبَّاسٍ مِنْ قُثَمَ، فَمَا اسْتَحَىٰ مِنْ عَمِّهِ أَنْ حَمَلَ قُثَمَ وَتَرَكَهُ، قَالَ: ثُمَّ مَسَحَ عَلَىٰ رَأْسِي ثَلاثًا، وَقَالَ كُلَّمَا مَسَحَ: " اللهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي وَلَدِهِ**» فعبد الله بن جعفر يتيم مات أبوه جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة، فهو يتيم فمسح النبي ﷺ علىٰ رأسه، فأخذ العلماء من هذا الحديث استحباب مسح الرأس وإكرامه، والحديث رواه أحمد واللفظ له ورواه الحاكم والبيهقي.

وفي حديث الباب قال: «وَامْسَحْ رَأْسِهِ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ» يعني أطعم اليتيم من طعامك، يعني إما أن يكون المُراد أطعم اليتيم مما تملكه من الطعام، أو المعنىٰ لا تؤثر نفسك عليه بنفيس الطعام وتُطعمه دونه بل أطعمه ممّا تأكل منه.

قال: «فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ وَتَقْدِرُ عَلَىٰ حَاجَتِكَ» أي فإنّك إن فعلت ما ذكرت لك فأحسنت إليه وأكرمته ورحمته يحصل لك لين القلب وتنال بُغيتك ومطلوبك، وهذا المصود بقوله «وتقدر علىٰ حاجتك» أي تنال بُغيتك ومطلوبك والشاهد في الحديث أنّ الإحسان لليتيم يزيل قسوة القلب كما أراد هنا ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانه.

ونقل أبو طالب أنَّ رجلاً سأل أبا عبد الله -يعني أحمد بن حنبل- فَقَالَ له: كيف يرقُّ قلبي؟ قال: ادخل المقبرة، وامسح رأس اليتيم.

ومنها: كثرةُ ذكر الموت؛ ذكر ابنُ أبي الدُّنْيَا بإسناده، عن منصور بن عبد الرحمن، عن صفية "أنَّ امرأة أتت عائشة لتشكو إليها القسوة. فقالت: أكثري ذكر الموت، يرق قلبك وتقدرين عَلَىٰ حاجتك. قالت: ففعلت، فآنست من قلبها رشدًا، فجاءت تشكر لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا".

وكان غيرُ واحد من السلف، منهم سعيد بن جُبير، وربيع بن أبي راشد يَقُولُونَ: لو فارق ذكرُ الموت قلوبنا ساعة لفسدت قلوبُنا.

والشاهد من الأثر أنّ الإمام أحمد دلّ علىٰ الرجل ما يرق به قلبه وتذهب به قسوة قال: «أدخل المقبرة» وهذا من مزيلات قسوة القلوب، وسيذكره المُصنف رَحِمَهُ اللهُ

قال: «وامسح رأس اليتيم » فمسح رأس اليتيم مما يذهب قسوة القلوب وهذا ما يوافق الحديثين السابقين.

ثم قال فهذا: «ومنها: كثرةُ ذكر الموت » وهذا ذكر لمزيل آخر من مزيلات قسوة القلوب ألا وهو كثرة ذكر الموت، فذكر هنا قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وقلوها للمرأة التي شكت لها قسوة قلبها «**أكثري ذكر الموت، يرق قلبك وتقدرين عَلَىٰ حاجتك**» حاجتها التي جاءت تسأل عائشة عنها وهي بيان ما يزيل قسوة قلبها، وإرشاد عائشة المرأة إلىٰ كثرة ذكر الموت لأجل أنّه يلين القلوب ويزيل قسوتها.

فقسوة القلوب أيها الإخوة تأتي من تعلّق القلوب بالدنيا ونسيان الآخرة فإذا أكثر المسلم من ذكر الموت أذهب عنه هذا تلك القسوة التي يجدها في قلبه.

ثم نقل عن بعض الشلف قولهم: «لو فارق ذكرُ الموت قلوبنا ساعة لفسدت قلوبُنا»

فهذا يدل علىٰ أنّ صلاح قلوبهم هو في كثرة ذكر الموت، فكثرة ذكر الموت تصلح بها القلوب وتُزيل قسوتها عنها ولهذا قالوا: «لو فارق ذكر الموت قلوبنا ساعة لفسدت قلوبنا » فنفهم من هذا أنّ صلاح القلوب وزوال ما فيها من القسوة إنما يكون بكثرة ذكر الموت كما فهم هؤلاء رَحِمَهُمُ اللهُ.

وفي "السُّنن" عن النبي ﷺ : «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ» الموت.

«هَاذِمِ» ضُبط بالذال المعجمة من الهَذْم وهو القطع، وضُبطت أيضا بالدال المهملة "هادم" من الهدم يقال هدم البناء إذا نقضه، والمراد باللفظين: "هادم اللذات" أو "هاذم اللذات" المراد به الموت، فهو هاذم اللذات وهادمها، إما لأنّ ذكر الموت يزهد في الدنيا وفي لذاته فكان هاذما وهادما لها، وإما لأنه إذا جاء الموت ما يبقي من لذائذ الدنيا شيئا فيهدم ويهذم أي يقطع كل اللذائذ.

ونبينا ﷺ في قوله: «أكثروا ذكر هاذم اللذات » شبّه اللذات الفانية والشهوات العاجلة وزوالها شبهه ببناء مرتفع ذلكم البناء ينهدم بصدمات قوية، ثم أمر ﷺ المُنهمك في هذه اللذات بذكر الهاذم والهادم بأن لا يستمر في الركون إليها ويشتغل عمّا يجب عليه من التزود إلىٰ دار القرار وإلىٰ لقاء الله ﷻ فهو يعلم بأنّ هذه اللذات كالبناء الذي يُهدم، وهذا المُنهمك في اللذات يُخبر بأنّ هذا البناء سيُهدم، وإذا علم ذلك فإنّ الواجب عليه أن يتزود إلىٰ دار القرار، فقال ﷺ: «أكثروا هاذم اللذات » أي أكثروا من ذكره، نغِّصوا بذكره لذّاتكم حتىٰ ينقطع ركونكم إلىٰ هذه الدنيا فتُقبلوا علىٰ الله ﷻ والدار الآخرة.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «أكثروا» هذه تفيد الأمر بالتكرار، حتىٰ لا تكون ثَمَّة غفلة عنه أي أنّ المرء يكون دائم الذكر للموت، فهذا يُثمر ثمرات عظيمة، فالحديث فيه دليل أنّه لا نبغي للإنسان أن يغفل عن ذكر أعظم المواعظ ألا وهو الموت.

والرسول ﷺ لمّا يأمر بذكر الموت إنما يأمر الذكر القلبي لا اللساني فقط ورحم الله المُناوي لما قال: «**والمراد الذكر القلبي الذي له تأثير لا الذكر اللساني الخالي من الاعتبار** » فلا ينفع أن يذكر الإنسان الموت بلسانه بغير اعتبار ولا اتعاظ، بل يذكره بقلبه مُتذكرا خروجه من الدنيا وإقباله علىٰ الله جلّ وعلا، وتفكره في حاله بأي زاد يلقىٰ الله ﷻ، فذكر الموت بالقلب هذا الذي يؤثر في صاحبه وهذا الذي يُصلح القلوب ويزيل قسوتها يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التذكرة» كما نقل عن العلماء «**أي فعلىٰ أصحابها** – أي أصحاب القلوب القاسية– **أن يعالجوها بأربعة أمور:**

أحدها: الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر، والتخويف والترغيب، وأخبار الصالحين. فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها.

الثاني: ذكر الموت من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وميتم البنين والبنات

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن في النظر إلىٰ الميت ومشاهدة سكراته، ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، ما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمنع الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث علىٰ العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها علىٰ دواء دائه، ويستصرخ بها علىٰ فتن الشيطان وإغوائه، فإن انتفع بها فذاك، وإن عظم عليه ران القلب، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فزيارة قبور الموتىٰ –وهذا هو الأمر الرابع–».

فهذا كله يدل علىٰ أنّ كثرة ذكر الموت ممّا يزيل قسوة القلوب.

وروي مُرسلاً عن عطاء الخراساني قال: «مر رسولُ الله ﷺ بمجلس قد استعلاه الضحك فَقَالَ: شُوبوا مجلسكم بذكر مكدّر اللذات. قالوا: وما مُكدر اللذات يا رسول الله؟ قال: الموت».

وهذا الحديث كما هو ظاهر ضعيف لا يصح، لكونه مُرسلا وهو من أقسام الضعيف، وما فيه يشهد له الحديث الآخر: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ –هادم– اللَّذَّاتِ» فالشاهد أنّ كثرة ذكر الموت تُصلح القلوب وتزيل قسوتها، ذكر الموت بقلوبنا ، غير أنّ من عظيم الأسف أن يظل الكثير منّا في غفلة وتعام عن ذلك حتىٰ غلب علينا طول الأمل وران علىٰ قلوبنا سوء العمل، وكأنه –والله المستعان– لا حياة لنا إلا الحياة الدنيا إنها لمصيبة عظيمة أن نغفل علىٰ حقيقة فراق الدنيا وملاقاة الموت مع أنّه مدركنا لا محالة، فربنا ﷻ يقول في كتابه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾.

ويقو جلّ في علا: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾.

سبحان الله ألم يُحذرنا ربنا ﷻ في كتابه ونحن نقرأ القرآن يا معاشر المسلمين، ألم يُحذرنا في ربنا في كتابه من طول الأمل فقال جلّ في علاه ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقال جلّ في علاه: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ * رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

ألم يُذكرنا ربنا في كتابه بالموت في آيات كثيرة بل وأمرنا جلّ وعلا بتذكره قال ﷻ: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال جلّ في علاه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

ما أقسىٰ هذه القلوب التي لا تتعظ بكلام علّام الغيوب ﷻ، آيات عظيمات يُذكرنا ربنا جلّ وعلا فيها بالموت وقدومه وأنّه قريب -يا عبد الله- بل الأدهىٰ والأمر قد غفلنا أيضا عن هدي نبينا ﷺ رسولنا عليه الصلاة والسلام الحريص بهذه الأمة الدال لها علىٰ كل خير والمُحذر لها من كل شر، حذّرنا عليه الصلاة والسلام من الدنيا وحذّرنا من طول الأمل أمرنا ووصانا عليه الصلاة والسلام بكثرة ذكر الموت، ولكننا أيها المسلمون عن سنة رسول الله ﷺ في هذا الباب مُعرضون لقد قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم كما يقول القرطبي رَحِمَهُ اللهُ، فقد علم النبي ﷺ هذه الحقيقة قد علم أنه ميت عليه الصلاة والسلام ولهذا كان دائم الذكر للموت عليه الصلاة والسلام كان يذكر الموت في دعائه، أدعية كثيرة ثابتة عن نبينا ﷺ يذكر فيها الموت عليه الصلاة والسلام، منها ما كان يقوله ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا ، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا ، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». كان يقول في صلاته عند التشهد الأخير: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ** ». يتذكر الموت فيها عليه الصلاة والسلام، وفي صحيح مسلم عن علي بن طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام للصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين » تذكّر مماته عليه الصلاة والسلام. ومن تذكره للموت ما يرويه أبو سعيد الخُدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «**خطب رسول الله ﷺ النَّاس، وقال: إنَّ الله خيَّر عبدًا بين الدُّنْيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. قال: فبكىٰ أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر ﷺ عن عبد خُيِّر، فكان ﷺ هو المخَيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا**».

تذكر الموت عليه الصلاة والسلام عند القبور، وتذكرها عند تشييع أصحابه في المقبرة، تذكرها عند القبور فعندما زار قبر أمه تذكر الموت وبكىٰ، ففي صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَىٰ وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: « **اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»

وكان يتذكر الموت عند نومه وعند الاستيقاظ منه كما في حديث البراء أنه عليه الصلاة والسلام كان

إذا أخذ مضجعه قال: «**اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ :الحَمْدُ للهِ الَّذي أَحْيَانَا بعْدَ مَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ**» .

هكذا -أيها الإخوة المستمعون- كان نبينا ﷺ دائم الذكر للموت عليه الصلاة والسلام، فلنكن عباد الله كنبينا عليه الصلاة والسلام متأسين به في تذكرنا للموت وعدم غفلته عنه عليه الصلاة والسلام، وكيف لا نكون كذلك وقد أمرنا بتذكره عليه الصلاة والسلام، كما سمعتم في هذا الحديث: «أكثروا من ذكر هادم اللذات» رواه البخاري وغيره.

فتذكر -أخي المسلم- لحظة قبض روحك من ملك الموت ومن معه من الملائكة الذين يعينونه، تذكر تلك اللحظة وأنت لا تدري أيُقال لنفسك: «أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلىٰ سخط من الله وغضب» أو يقال لها: «أيتها النفس الطيبة -وفي رواية مُطمئنة- أخرجي إلىٰ مغفرة من الله ورضوان » وأنت لا تدري يا عبد الله بعد قبض روحك هل تكون ممّن تُفتح لهم أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله لك أو تكون ممن قال الله فيهم: «لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتىٰ يلج الجمل في سم الخياط»

إنّ الخطب جسيم والأمر عظيم ومع ذلك -سبحان الله- نسيناه وغفلنا عن ذكره حتىٰ قست قلوبنا والله المستعان.

فكونوا عباد الله ممن يُكثر ذكر الموت فؤلائك هو أكيس الناس، جاء رجل من الأنصار فسلم علىٰ النبي ﷺ ثم قال يا رسول: «**أي المؤمنين أفضل؟ قال أحسنهم خلقا. قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم لما بعده استعدادا، أولئك الأكياس**» رواه ابن ماجه.

بيّن ﷺ أنّ المكثرين من ذكر الموت هم الذين يستحيون من الله حق الحياء وذلك حين قال لأصحابه: «**استحيوا من الله حق الحياء. قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحي والحمد لله، قال: ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، ولتذكر الموت والبلىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك استحيا من الله حق الحياء**». والشاهد عباد الله أنّ النبي ﷺ ذكر من علامات الذين يستحيون منالله حق الحياء أنهم يذكرون الموت والبلىٰ .

فتذكروا الموت دائما أيها الإخوة فإنّ ذلك يدفعكم إلا فعل الصالحات والتزود لما بعده، لأنّ نهاية العبد في الدنيا ليست هي النهاية بل وراءها غاية أعظم منها وهي الآخرة، ومن ثَمَّ ينبغي أن نعلم أن تذكر

الموت الذي ينفع قلوبنا هو التذكر الذي يكون بالقلب لا بمُجرد اللسان، وهو التذكر الذي يكون علىٰ أساس أنّ العبد سيُفارق دار العمل، هذا هو التذكر الذي يجد به العبد طُمأنينة في قلبه، هذا التفكر الذي يجد به العبد سعادة وراحة حتىٰ عند آخر لحظة وهي قبض روحه من هذه الدنيا.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الشرح الممتع: «**وينبغي للإنسان أن يتذكر حاله ونهايته في هذه الدنيا، وليست هذه النهاية نهاية، بل وراءها غاية أعظم منها، وهي الآخرة، فينبغي للإنسان أن يتذكر دائمًا الموت لا علىٰ أساس الفراق للأحباب والمألوف؛ لأن هذه نظرة قاصرة، ولكن علىٰ أساس فراق العمل والحرث للآخرة، فإنه إذا نظر هذه النظرة استعد وزاد في عمل الآخرة، وإذا نظر النظرة الأولىٰ** –أي نظرة المُفارقة للأحباب والمألوفات– **حزن وساءه الأمر، وصار علىٰ حد قول الشاعر:**

لا طيب للعيش ما دامت منغصة * لذاته بادّكار الموت والهرم**

فيكون ذكره علىٰ هذا الوجه لا يزداد به إلا تحسراً وتنغيصًا، أما إذا ذكره علىٰ الوجه الأول وهو أن يتذكر الموت، ليستعد له ويعمل للآخرة، فهذا لا يزيده حزنًا، وإنما يزيده إقبالاً علىٰ الله ـ عز وجل ـ، وإذا أقبل الإنسان علىٰ ربه فإنه يزداد صدره انشراحًا، وقلبه اطمئنانًا.» انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ

فمن نظر إلىٰ الموت هذه النظرة انتفع انتفاعا عظيما سواء بما يتعلق بصلاح قلبه أو إقباله علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عموما، هكذا ينبغي –يا عباد الله– إذا أكثرنا من تذكر الموت:

أولا: أن يكون تذكرنا للموت بقلوبنا.

وثانيا: يجب أن نتذكر الموت علىٰ أساس فِراق دار العمل والحرث للآخرة مما يدفع العبد إلىٰ الاجتهاد في عمل الآخرة والاعراض عن هذه الدنيا والأخذ منها ما يعينه علىٰ سفره إلىٰ الله والدار الآخرة فقط.

ولأجل ذلك فإنَّ الذي يُكثر من تذكر الموت علىٰ أساس فراق دار العمل وحرث الآخرة هذا المُوّفق إذا رأىٰ مبشرات من رحمة الله ومغفرته ورضوانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند الغرغرة عندما يأتي ملك الموت لقبض روحه فإنه إذا رأىٰ تلك المبشرات كان موته أحب إليه من حياته وأحبّ لقاء الله عزّ وجلّ كما قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**».

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام إجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاك.

اللهم إنا نسألك نعيما لا ينفد ونسألك قرة عين لا تنقطع ونسألك الرضىٰ بعد القضاء ونسألك ببرد

العيش بعد الموت ونسألك لذّة النظر إلىٰ وجهك الكريم والشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مَضرة ولا فتنة مُضلة.

اللهم زيّنا زينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين.

والله تعالىٰ أعلم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

ومنها: زيارةُ القبور بالتفكر في حال أهلها ومصيرهم؛ وقد سبق قولُ أحمد للذي سأله ما يُرقُّ قلبي؟ قال: ادخل المقبرة.

زيارة القبور هي من أنفع ما يكون للقلوب فإنها تزيل قسوتها، ولهذا أرشد الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ من سأله عمّا يرّق قلبه فقال له أدخل المقبرة، وقد سبق هذا الأثر معنا، والشاهد فيه أنّه أرشده إلىٰ دخول المقبرة، فإنَّ هذا العمل ممّا يُرقق القلب ويُذهب قسوته، فزيارة القبور تزيل قسوة القلوب، وزيارة القبور سواء كانت القبور للمسلمين أو للكفار فإنّ فيها عبرة وعظة، ففي زيارتها سواء كانت القبور قبور الكفار والمشركين أو قبور المسلمين ففي زيارتها إحياء لسنة النبي ﷺ وفيها تذكر للآخرة وفيها إعتبار بحال الموتىٰ، هذه الفوائد من زيارة القبور سواء كانت للمسلمين أو الكفار، غير أنّ الفارق بينهما أنّ من زار قبور المسلمين يُسلم عليهم ويدعوا لهم، وأما من زار قبور الكُفار فلا يدعوا لهم ولا يُسلم عليهم، بل يُبشرهم بالنار كما ثبت عن نبينا ﷺ، وممّا يدل علىٰ جواز زيارة قبور الكُفار للعبرة فعل النبي نبينا ﷺ حيث زار قبر أمه وهي كافرة، كما في الحديث الذي عند الإمام مسلم من طريق أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «**زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَىٰ وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ** » فالحديث دلّ علىٰ جواز زيارة قبور المشركين والكفار للعبرة بل أخذ العلماء رحمهم الله من هذا الحديث جواز زيارة الكُفار والمشركين وهم أحياء، لأنّه إذا جازت زيارتهم وهم أموات وقد انقطع الأمل في إسلامهم ففي الحياة أولىٰ لأنّ زائرهم يمكن أن يدعوهم إلىٰ الإسلام.

وأما تبشير الكفار بالنار إذا زارهم فقد ثبت عن سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه قال: «جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: إنّ أبي كان يصل الرحم وكان وكان، فأين هو؟ فقال ﷺ: في النار. فكأن الأعرابي وَجَدَ من ذلك فقال: يا رسول الله فأين أبوك؟ فقال النبي ﷺ: حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار، فأسلم الأعرابي بعد فقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعبا ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار» والحديث أخرجه الطبراني في المُعجم الكبير وابن السُنّي في عمل اليوم والليلة، وعند ابن السُنّي عن أبي هريرة مرفوعا: «إذا مررتم بقبورنا وقبوركم من أهل الجاهلية فأخبروهم أنّهم من أهل النار » وهذان الأثران ذكرهما الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «أحكام الجنائز» والشاهد أنّ زيارة القبور سواء كانت الزيارة لقبور المسلمين أو

قبور الكفار فإنها نافعة للقلوب.

قال القرطبي في التذكرة: «**قال العلماء: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور وخاصة إن كانت قاسية**»

ويقول المُناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ليس للقلوب سيما القاسية أنفع من زيارة القبور فزيارتها وذكر الموت يردع عن المعاصي ويلين القلب القاسي ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب وزيارة القبور تبلغ في دفع رَين القلب واستحكام دواعي الذنب ما لا يبلغه غيرها** » هذا فيه أنّ زيارة القبور من أنفع ما يكون للقلوب لأجل إزالة قسوتها.

وقد ثبت في "صحيح مسلم" عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْت».

وعن بُريدة، أنَّ النبي ﷺ قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ» رواه أحمد والترمذي وصححه.

الحديث الأول فيه أمر من النبي ﷺ بزيارة القبور وهذا بعد أن نهىٰ عن زيارتها ﷺ فنسخ هذا النهي وبيّن ﷺ العلّة في إباحة زيارتها بعد النهي فقال: «فإنها تُذكر الموت » أي أنَّ الزيارة تكون للاعتبار والتذكر، ولا شك أنّ ذكر الموت يُزهد في الدنيا التي الركون إليها هو سبب قسوة القلوب، فإذا زهد العبد في الدنيا ورغب في الآخرة لان قلبه وزالت قسوته.

وفي الحديث الثاني قوله ﷺ: «فإنها تُذكر الآخرة» ولا شك أنّه من تذكر الآخرة زهد في الدنيا وسارع في الخيرات ما يكون به صلاح قلبه.

وعن أنس، أنَّ النبي ﷺ قال: "كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَةِ الْقبُورِ، ثُمَّ قَدْ بَدَا لِي أَنّها تُرِقُّ الْقَلْبَ وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوهَا وَلاَ تَقُولُوا هُجْرًا" رواه الإمام أحمد وابن أبي الدُّنيَا.

فبيّن ﷺ في هذا الحديث علّة أمره بزيارة القبور وهي ثلاثة أمور:

أولا: قال تُرّق القلب «ثُمَّ قَدْ بَدَا لِي أَنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ» وإذا رّق القب كان صاحبه سبّاقا إلىٰ الخيرات مُشمرا في الطاعا مُبتعدا عن المعاصي والمنكرات، وهذا نصٌ في تأثر القلوب بزيارة القبور وأنّها تزيل قسوتها لأنه قال: «تُرِقُّ الْقَلْبَ».

ثانيا: قال «وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ» ودمع العين علامة علىٰ صحة القلب، وقد زار النبي ﷺ قبر أمه فبكىٰ وأبكىٰ من حوله عليه الصلاة والسلام. وقد قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومتىٰ أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالىٰ فاعلم أن قحطها من قسوة القلب وأبعد القلوب من الله القلب القاسي».

ثالثا: قال: «وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ» والذي يتذكر الآخرة كما ذكرنا يزهد في الدنيا ويسارع إلىٰ الخيرات.

ثم قال ﷺ في هذا الحديث « فَزُورُوهَا» أي القبور «وَلاَ تَقُولُوا» أي عند زيارتها «هُجْرًا» أي لا تقولوا قولا قبيحا وفاحشا ، وهذا نهي عن قول ما يفحش عند القبور فلا يليق أن يقول ما يفحش عند القبور، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في المجموع «**وَالْهجْرُ الْكَلَامُ الْبَاطِلُ وَكَانَ النَّهْيُ أَوَّلًا لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ مِنْ الجاهلية فربما كانا يَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ الْبَاطِلِ فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ قَوَاعِدُ الْإِسْلَامِ وَتَمَهَّدَتْ أَحْكَامُهُ واستشهرت مَعَالِمُهُ أُبِيحَ لَهُمْ الزيارة واحتاط ﷺ بِقَوْلِهِ وَلَا تَقُولُوا هجرا**» انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

فقول النبي ﷺ «وَلاَ تَقُولُوا هُجْرًا» هذا نهي عن قول ما يفحش وما يقبح عند القبور.

وقد صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، وَلْتَزِدْكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا» رواه الإمام أحمد. أي لتكن زيارتكم إياها سببٌ للخير لأنّه قال: «وَلْتَزِدْكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا» وقال ﷺ: «إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فإنَّ فيها عبرة» رواه الحاكم.

وقال الصنعاني بعد أن ذكر جُملة من الأحاديث المُتعلقة بزيارة القبور وبيان الحكمة من زيارتها قال: «**وَالْكُلُّ دَالٌّ عَلَىٰ مَشْرُوعِيَّتِهِ زِيَارَةَ الْقُبُورِ وَبَيَانِ الْحِكْمَةِ فِيهَا وَأَنَّهَا فَإِذَا خَلَتْ مِنْ هَذِهِ لَمْ تَكُنْ مُرَادَةً شَرْعًا**»

وكلام الصنعاني نستفيد منه أنّ من زار القبور يزورها مُستحضرا هذه المعاني بقلبه حتىٰ ينتفع بالزيارة، وهذه هي الزيارة المُرادة شراعا، وليس المُراد زيارة القبور أن يكون حظ العبد منها هو دخول المقبرة

والتطواف بين القبور، فهذه الحالة تشاركه فيها البهائم نعوذ بالله من ذلك، فمن زار القبور ينبغي عليه بذلك أن يقصد وجه الله ﷻ وإحياء السنة والدعاء للمسلمين وإصلاح فساد قلبه، لأنّ فيها عبرة وعظة فإذا دخلت المقبرة:

تذكر الموت وأنه مُدركك لا محالة.

تذكر أنّك زائر وغدا ستكون مزورا.

تذكر القبر وظلمته وما فيه من النعيم والعذاب.

تذكر أسباب العذاب فيه وتذكر المنجيات من عذاب القبر إذا دخلت المقبرة.

تذكر ضمة القبر التي لو نجىٰ منها لنجىٰ منها سعد بن معاذ رضي الله عنه، سعد الذي إهتز لموته عرش الرحمان.

تذكر إذا زُرت المقابر سؤال الملكين وإمتحان القبر وفتنته.

تذكر إذا دخلت المقبرة الدار الآخرة لعلمك حينها علم يقين بمفارقة الدنيا ونعيمها.

كل هذه الأمور ينبغي أن تُتذكر عند القبور كيف لا ورسول الله ﷺ يقول: «**ما رأيت منظرا قط إلا والقبر أفضع منه**» كل هذه المعاني يستفيدها المسلم من المفروض إذا زار القبور، ولا شك أنّها تورث صلاحا في قلبه ولهذا قلنا إنّ زيارة القبور ترقق القلوب وتُذهب القسوة عنها.

وهنا سؤال ينبغي أن نطرحه علىٰ أنفسنا وينبغي علىٰ كل مسلم أن يطرحه علىٰ نفسه، ما حالنا اليوم مع زيارة المقابر؟ ما هو حالنا اليوم إذا زُرنا هته القبور؟ إنّ كثيرا من المسلمين -أولا- لا يزورون المقابر، فلا يُطبقون الُسنة، لا يزورونها إلا إذا كان ثمّة جنازة، وقد تمر علىٰ الواحد الأشهر بل الأعوام لا يدخل فيها المقبرة، تمر عليه هذه المدة ولا يدخل فيها المقبرة، والأعظم من هذا من إذا دخلوا المقابر خرجوا منها مثلما دخلوا، بل قد يكون حالهم أسوأ حالا، ترىٰ أكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في الدنيا وملذاتها وهم علىٰ القبور قائمون، لا يتفكر الواحد منهم -إلا ماشاء الله- في جنازة نفسه وفي حاله إذا حُمل عليها، أمّا البكاء عند دخول المقابر فحدث ولا حرج، عن فقده اليوم في أوساط المُسلمين، هذاهو حالنا اليوم، إذا دخلنا المقابر فيكف نرجوا بعد ذلك صلاح قلوبنا وإزالة قسوتها، بل غفلتنا هذه عند المقابر ما هي إلا دليل علىٰ قسوة قلوبنا والعياذ بالله، قسوة قلوبنا بكثرة المعاصي والذنوب حتىٰ نسينا الله تعالىٰ والدار الآخرة، حتىٰ نسينا تلك الأهوال التي بين أيدينا فصرنا نلهوا

ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا، نسأل الله عزّ وجلّ أن يرحمنا.

و السنّة أن يزور المؤمن القبور بخشوع ورغبة في الآخرة، يقصد بذلك الرحمة بالأموات والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، ويقصد الاعتبار والذكرىٰ، يذكر الآخرة ويذكر الموت ويتأهب لذلك، ويقصد علاج قلبه وقسوته حتىٰ لا يموت هذا القلب، ثم إنّ زائر القبور ينبغي عليه أن يتأدب بآداب مهمة:

فإذا دخلت المقبرة يُشرع لك أن تقول: «السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنّا إن شاء الله لكم للاحقون» وهذا من الإحسان للموتىٰ بالسلام عليهم والدعاء والاستغفار لهم، وهذا خاص بالمسلمين، أمّا الكفار وإن جاز زيارة قبورهم للاعتبار فلا يجوز الدعاء لهم، وعليه -أيها الإخوة- فلا يُشرع قراءة الفاتحة عند دخول المقابر بل ينبغي علىٰ المسلم أن يلتزم ما ثبت عن نبينا ﷺ في هذا الباب.

واعلموا -رحمكم الله- أنّ قبور المسلمين محترمة فلا يجوز وطؤها والجلوس عليها، قال ﷺ: «لأن يجلس أحدكم علىٰ جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلىٰ جلده خير له من أن يجلس -وفي رواية يطأ- علىٰ قبر» رواه الإمام مسلم.

وكذلك من مراعاة حُرمة قبور المسلمين أن لا تمشي بين القبور بالنعال، فقد قال النبي ﷺ لرجل يمشي بين القبور بالنعال: «يا صاحب السّبتيّتين ألق سبتيّتيك» وهما نعلان، فأمره أن يلقي بنعليه هذا من باب التنزه ومن باب الأفضلية، أو قد يكون هذا الشخص لم يراعي في مشيته أهل القبور، أو لم تكن هناك حاجة، أما إذا كانت هناك حاجة فلا بأس، يعني إذا كانت الأرض حارة أو لشدة البرد أو وجود شوك وطين ونحو ذلك فإنه لا بأس أن يمشي بينها بنعليه، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**المشي بين القبور بالنعال خلاف السنة ، والأفضل للإنسان أن يخلع نعليه إذا مشىٰ بين القبور إلا لحاجة ، إما أن يكون في المقبرة شوك ، أو شدة حرارة ، أو حصىٰ يؤذي الرجل فلا بأس به ، أي يلبس الحذاء ويمشي به بين القبور**» انتهىٰ كلامه.

ثم ينبغي علىٰ المسلم إذا زار القبور أن يحذر من العبادة عند القبور كالذبح والصلاة والصدقة لنهي النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، فليست المقبرة مكانا للعبادة إلا ما ثبت من زيارتها والدعاء للأموات والاتعاظ بأحوالهم.

وما ذكرنا حول زيارة القبور هذا للمرأة والرجل لحد سواء، فالزيارة مستحبّة في حق المرأة أيضا،

ومن الأدلة علىٰ ذلك مشاركتهن الرجال في العلّة التي من أجلها شرع نبينا ﷺ زيارة القبور، ثم إنه في الحديث قال: «زوروا القبور» وهذا عام للرجال والنساء، ومن الأدلة الخاصة: ما ثبت أنّ النبي ﷺ علّم أمّنا عائشة رضي الله عنها السلام علىٰ القبور، ففهمت عائشة أنّه يُشرع زيارتها للنساء فلذلك كانت عائشة رضي الله عنها تزور القبور، فقد روىٰ الحاكم عن أبي الله بن مليكة قال: **«أَنَّ عَائِشَةَ أَقْبَلَتْ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْمَقَابِرِ فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟ قَالَتْ: مِنْ قَبْرِ أَخِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ لَهَا: أَلَيْسَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَهَىٰ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، «كَانَ قَدْ نَهَىٰ، ثُمَّ أُمِرَ بِزِيَارَتِهَا»»**

ومن ذلك إقرار النبي ﷺ المرأة التي رآها عند القبر، في حين مرّ بها وهي تبكي قال لها ﷺ: «**اتق الله واصبري**»والحديث عند الإمام البخاري وغيره.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «**وَمَوْضِعُ الدَّلَالَةِ مِنْهُ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُنْكِرْ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ قُعُودَهَا عِنْدَ الْقَبْرِ وَتَقْرِيرُهُ حجَّة**» ولكن مع أنّنا نقول بجواز زيارة المرأة للمقابر لكن لا يجوز لها الإكثار من زيارة القبور ولا يجوز لها كثرة التردد عليها لأنّ ذلك قد يُفضي بهنّ إلىٰ مخالفة الشرع مثل النياحة والصياح والتبرج واتخاذ القبور مجالس للنزهة وتضيع الوقت في الكلام وهذا هو المُراد من الحديث المشهور: «لعن رسول الله –وفي رواية– لعن الله زوّارات القبور وفي لفظ زائرات القبور » مع أنّ المسألة ممّا اختلف العلماء فيه رحمهم الله تبارك وتعالىٰ.

وذكر ابنُ أبي الدُّنْيَا، عن محمد بن صالح التمار قال: كان صفوانُ بن سليم يأتي البقيع في الأيام فيمر بِيْ، فاتبعته ذات يوم. وقلت: والله لأنظرنَّ ما يصنع. قال: فقنَّع رأسه وجلس إِلَىٰ قبر منها، فلم يزل يبكي حتىٰ رحمته. قال: ظننتُ أنه قبر بعض أهله. قال: فمر بي مرة أخرىٰ، فاتبعته فقعد إِلَىٰ جنب قبر غيره. ففعل مثل ذلك فذكرتُ ذلك لمحمد بن المنكدر، وقلتُ: إِنَّمَا ظننتُ أنه قبر بعض أهله. فَقَالَ محمد: كلهم أهله وإخوانه، إِنَّمَا هو رجل يحرك قلبه بذكر الأموات، كلّما عرضت له قسوةٌ. قال: ثم جعل محمد بن المنكدر بعد يمرّ بي فيأتي البقيع، فسلَّمت عليه ذات يوم، فَقَالَ: ما نفعتك موعظة صفوان. قال: فظننت أنه انتفع بما ألقيتُ إِلَيْهِ منها.

وذكر أيضـًا أنَّ عجوزًا مُتَعبِّدة من عبد القيس كانت تُكثر إتيان القبور، فعُوتبت في ذلك. فقالت: إِنَّ القلب القاسي إذا جفا لم يليّنه إلاَّ رسوم البلىٰ، وإنِّي لآتي القبور وكأني أنظر إليهم وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إِلَىٰ تلك الوجوه المتعفِّرة، وإلىٰ تلك الأجسام المتغيِّرة، وإلىٰ تلك الأكفان الدنسة. فيا له منظر لم أَسرّ به قلوبهم، ما أنكل مرارة الأنفس وأشد تلفة الأبدان.

وقال زياد النميري: ما اشتقت إِلَىٰ البكاء إلاَّ مررت عليه. قال له رجل: وكيف ذلك؟ قال: إذا أردتُ ذلك خرجت إِلَىٰ المقابر فجلست إِلَىٰ بعض تلك القبور، ثم فكَّرتُ فيما صاروا إِلَيْهِ من البلىٰ، وذكرت ما نحن فيه من المُهلة. قال: فعند ذلك تختفي أطوَاري!

«فقنَّع رأسه» أي غطّاه بقناع. فمحمد بن المنكدر رَحِمَهُ اللَّهُ لمّا أخبره محمد بن صالح التمار أنّ صفوان بن سليم كان يأتي المقبرة ويجلس عند قبر ثم يجلس عند قبر آخر ويقنّع رأسه ويبكي، فلمّا أخبره بذلك اتعظ محمد بن المنكدر بفعل صفوان بن سليم فصار هو أيضا يذهب إلىٰ المقبرة، هذا فيه أنهم كانوا يعالجون قسوة قلوبهم بزيارة القبور، لأنّ زيارة القبور تلك الزيارة المُرادة من جهة الشرع، كما بيّنت سابقا، فهي من أعظم ما يلين هته القلوب ويزيل قسوتها فهذا فعل سلف الأمة والصالحين منها.

ثم ذكر حال هذه المرأة التي كانت تذهب إلىٰ القبور لأجل أن تزيل قسوة قلبها.

ثم ذكر قول زياد النميري، وقوله: «فعند ذلك تختفي أطوَاري» والأطوار جمع طور والمراد به الحال، كأنه يريد أنّ أحواله تتغير إلىٰ الأحسن بعد زيارة القبور، وهذا من الشواهد العملية لزيارة القبور علىٰ القلوب أوردها الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقلتُ والله الموفَّق:

أفي دار الخراب تظل تبني ... وتعمر ما لعمران خُلقتا

وما تركت لك الأيامُ عذرًا ... لقد وعظتك لكن ما اتعظتا

تُنادي للرحيل بكل حين ... وتُعلن إنَّمَا المقصودُ أنتا

وتُسمعك النداءَ وأنت لاهٍ ... عن الداعي كأَنَّك ما سمعتا

وتعلم أَنَّه سفرٌ بعيد ... وعن إعداد زادٍ قد غفلتا

تنام وطالب الأيام ساعٍ ... وراءك لا ينام فكيف نمتا

معائب هذه الدُّنْيَا كثير ... وأنت عَلَىٰ محبَّتها طُبعتا

يضيع العمرُ فِي لعبٍ ولهو ... ولو أُعطيت عقلاً ما لعبتا

فما بعد الممات سوىٰ جحيمٍ ... لعاص أو نعيم إِنْ أطعتا

ولست بآمل باطلٍ ردًّا لدنيا ... فتعملُ صالحًا فِيما تركتا

وأوَّلُ من ألوم اليوم نفسي ... فقد فعلتْ نظائرَ ما فعلتا

أيا نفسي أخوضًا فِي المعاصي ... وبعد الأربعين وفيت ستّا

وأرجو أن يطول العمرُ حتىٰ ... أرىٰ زاد الرحيل وقد تأَتَّىٰ

أيا غُصن الشباب تميل زهوًا ... كأنك قد مضىٰ زمن وعشرتا

علمتَ فدع سبيلَ الجهل واحذر ... وَصحِّحْ قد علمتَ وما عملتا

ويا من يجمع الأموال قل لي ... أيمنعك الردىٰ ما قد جمعتا

ويا من يبتغي أمرًا مطاعًا ... ليسمع نافذًا مَن قد أمرتا

عججت إِلَىٰ الولاية لا تُبالي ... أجرت عَلَىٰ البرية أم عدلتا

ألا تدري فلَنك يوم صارت ... إليك بغير سكين ذُبحتا

وليس يقوم فرحةُ قد تولَّىٰ ... بترحة يوم تسمع قد عُزلتا

ولا تمهل فإن الوقت يسري ... فإِنْ لم تغتنمه فقد أضعتا

ترىٰ الأيام تُبلي كل غُصن ... وتطوي مِن سرورك ما نشرتا

وتعلم إنَّما الدُّنْيَا منام ... فأحلىٰ ما تكون إذا انتبهتا

فكيف تصدّ عن تحصيل باق ... وبالفاني وزخرفه شُغلتا

هي الدُّنْيَا إذا سرتك يومًا ... تسوءك ضعف ما فيها سررتا

تغرّك كالسراب فأنت تسري ... إليه وليس تشعر إن غررتا

وشهد كم أبادت من حبيب ... كأنك آمن مما شهدتا

وتدفنهم وترجع ذا سُرور ... بما قد نلت من إرث وحرثا

وتنساهم وأنت غدًا ستفنىٰ ... كأنك ما خلقت ولا وجدتا

تُحدِّث عنهم وتقول كانوا ... نعم كانوا كما والله كنتا

حديثك هم وأنت غدًا حديث ... لغيرهم فأحسن ما استطعتا

يعود المرء بعد الموت ذكرًا ... فكن حسن الحديث إذا ذكرتا

سل الأيام عن عم وخال ... ومالك والسؤال وقد علمتا

ألست ترىٰ ديارهم خلاء ... فقد أنكرت منها ما عرفتا

هذه قصيدة للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ ذكرها هنا، ولا شك أنّها بينّة فيها من العظة والعبرة الشيئ العظيم، فقد صوّر حال المرء في هذه الحياة الدنيا وما يجب أن يكون عليه فيها، في هذه الحياة الدنيا.

ومنها: النظرُ في ديار الهالكين، والاعتبار بمنازل الغابرين.

«ومنها» أي من مزيلات قسوة القلب.

ذكر هنا من مزيلات القسوة النظر في ديار الهالكين، والاعتبار بمنازل الغابرين والنبي ﷺ نهانا عن دخول ديارهم إلا للعتبار، فقد روىٰ الشيخان من حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال: «مررنا مع رسول الله ﷺ علىٰ الحجر، وفي رواية أصحاب الحجر- يعني ديار ثمود وهذا كان حين خرجوا إلىٰ غزوة تبوك فقال لنا رسول الله ﷺلا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم» قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم » وهم قد ظلموا أنفسم بالكفر فعُذبوا «إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم » يعني خوفا أن تعاقبوا مثل ما عوقبوا، فهذا الحديث فيه النهي عن دخول ديار قوم الهالكين فضلا عن سكناها، حيث يُفهم من الحديث الزجر عن السكنىٰ فيها، وقد أشار الله جلّ وعلا في كتابه فقال: ﴿**وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ**﴾ لكن النبي ﷺ في هذا الحديث استثنىٰ دخول ديار الهالكين باكين والمراد دخولها للاعتبار.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «**إِنَّمَا ينشأ الْبكاء عَن التفكر، فَكَأَنَّهُ أَمرهم فِي التفكر فِي أَحْوَال توجب الْبكاء. والتفكر الَّذِي ينشأ عَنهُ الْبكاء فِي مثل ذَلِك الْمقَام يَنْقَسِم ثَلَاثَة أَقسَام: أَحدهَا تفكر يتَعَلَّق بِأَمْر الله عز وَجل. وَالثَّانِي: يتَعَلَّق بأولئك الْقَوْم. وَالثَّالِث: يتَعَلَّق بالمار عَلَيْهِم**».

قال شيخ الإسلام : «**فنهىٰ عن عبور ديارهن إلا علىٰ وجه الخوف المانع من العذاب**».

وعليه -أحسن الله إليكم- فإنه لا يجوز لأحد أن يذهب لديار ثمود لمجرد التنزّه والإطلاع، إلا رجلا يريد أن يذهب للتفكر والاعتبار فيكون باكيا عند مروره بتلك الأماكن، فإن لم يكن باكيا فإنه لا يجوز له أن يدخل عليهم لأنّه ربما يصيبه ما أصابهم كما حذّر النبي ﷺ قال: «إلا أن تكونو باكين » حذرا أن يصيبم مثل ما أصابكم.

يقول الشيخ ابن عثيمين: «**وبه نعرف خطأ هؤلاء الجهال الذين يذهبون إلىٰ ديار ثمود للتفرج والتنزه ويبقون فيها أياما ينظرون آثارهم القديمة فإنّ ذلك معصية للرسول ﷺ ومخالفة لهديه وسنته فإنه ﷺ لما مر بهذه الديار أسرع وقنّع رأسه ﷺ حتىٰ جاوز الوادي وحذر من أن يسكن الإنسان في مساكن الذين**

ظلموا» انتهىٰ كلام الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فمن الناس من يقصد تلك الأماكن كديار ثمود يريد الإطلاع ويريد التنزه خصوصا أنّ كثيرا من الناس يذهب إليها من العالم لأجل أن يتنزّهوا ويتطلعوا إلىٰ مافيها فقط وليس للاعتبار، والنبي ﷺ ما أذن في دخولها إلا للاعتبار والتذكرة والتفكّر الذي يصحبه البكاء، فهذا قاله للصحابة وهم سائرون إلىٰ الجهاد في سبيل الله، وقال لهم هذا الكلام بأن لا يدخلوها إلا وهم باكين عليه الصلاة والسلام، فدخول ديار الهالكين للاعتبار والبكاء هذا جائز وهذا الذي يريده ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذا الذي يزيل قسوة القلوب.

قال الحافظ ابن حجر: **«البكاء يبعثه علىٰ التفكر والاعتبار فكأنه أمرهم بالتفكّر في أحوال توجب البكاء مع تقدير الله تعالىٰ علىٰ أولائك بالكفر مع تمكينه لهم في الأرض وإمهالهم مدّة طويلة ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه وهو سبحانه مُقلب القلوب فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلىٰ مثل ذلك، فمن مرّ عليهم ولم يتفّكر فيما يوجب البكاء اعتبارا بأحوالهم فقد شابههم في الإهمال، ودل علىٰ قساوة قلبه وعدم خشوعه، فلا يأمن أن يجره ذلك إلىٰ العمل مثل أعمالهم فيصيبه ما أصابهم»**

وفي قوله: «فدلّ علىٰ قساوة قلبه » هذا بخلاف الذي دخلها باكيا معتبرا متعظا فهذا يزيل قسوة قلبه وهو الشاهد.

روىٰ ابنُ أبي الدُّنْيَا في كتاب "التفكر والاعتبار"، بإسناده عن عُمر بن سليم الباهلي، عن أبي الوليد، أنَّه قال: كان ابن عمر إذا أراد أنْ يتعاهد قلبَه يأتي الخربة فيقف عَلَىٰ بابها، فيُنادي بصوت حزين، فيقول: أَين أهلك؟ ثم يرجع إِلَىٰ نفسه، فيقول: كل شيء هالكٌ إلاَّ وجهه".

وروىٰ في كتاب "القبور" بإسناده، عن محمَّد بن قُدامة قال: كان الرَّبيعُ ابن خُثيم إذا وجد من قلبه قسوةً يأتي منزل صديق له قد مات في الليل فيُنادي: يا فُلان ابن فلان، يا فلان ابن فلان. ثم يقول: ليت شِعري، ما فعلتَ وما فُعل بك؟ ثم يبكي حتىٰ تسيل دموعه، فيعرف ذاك فيه إِلَىٰ مثلها.

«كان ابن عمر إذا أراد أنْ يتعاهد قلبَه يأتي الخربة فيقف عَلَىٰ بابها، فيُنادي بصوت حزين، فيقول: أَين أهلك؟ ثم يرجع إِلَىٰ نفسه، فيقول: كل شيء هالكٌ إلاَّ وجهه»

الخِربة: موضع الخراب يقال القرية الخربة يعني المكان الموحش المهدم البيوت.

ثم قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وروىٰ في كتاب "القبور" بإسناده» « بإسناده » أي أبا الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وذكر الأثر عن الربيع ابن خثيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذا الذي ذكره هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الشواهد العملية علىٰ أنّ إتيان ديار الهالكين للاعتبار والعظة هذا يكون فيه إزالة لقسوة القلوب .

ومنها: أكلُ الحلال؛ روىٰ أبو نُعيم وغيرهُ، من طريق عُمر بن صالح الطرسوسي، قال: ذهبتُ أنا ويحيىٰ الجلاء -وكان يقال إنّه من الأبدال- إِلَىٰ أبي عبد الله أحمد بن حنبل فسألتُه، وكان إِلَىٰ جنبه بوران وزُهير الجمال، فقلت: رحمك الله يا أبا عبد الله، بم تلين القلوبُ؟ فنظر إِلَىٰ أصحابه فغمزهم بعينه، ثم أطرق ثم رفع رأسه، فَقَالَ: يا بني بأكل الحلال. فمررتُ كما أنا إِلَىٰ أبي نصر بشر بن الحارث، فقلتُ له يا أبا نصر، بم تلين القلوب؛ فَقَالَ: ألا بذكر الله تطمئن القلوب. قلت: فإني جئتُ من عند أبي عبد الله قال: هيه.

أي شي قال لك أبو عبد الله؟ قلت: قال: بأكل الحلال. فَقَالَ: جاء بالأصل، جاء بالأصل. فمررتُ إِلَىٰ عبد الوهاب الوراق، فقلتُ: يا أبا الحسن بم تلين القلوب؟ فَقَالَ: ألا بذكر الله تطمئن القلوب. قلت: فإني جئتُ من عند أبي عبد الله. فاحمرت وجنتاه من الفرح. فَقَالَ لي: أي شيءٍ قال أبو عبد الله؟ قلتُ: بأكل الحلال. فَقَالَ: جاءك بالجوهر، جاءك بالجوهر، الأصل كمال الأصل.

قال بعضهم عنه: لقد حكيت ولكن فاتك الأنسب.

والحمد لله وحده.

«بم تلين القلوبُ؟ » فهو يسأل الإمام أحمد

«يا بني بأكل الحلال» أي أنّ القلوب تلين بأكل الحلال، ويُفهم منه أنّ القلوب تقسوا بأكل الحرام وقد ذكر هذا ﷺ حين ذكر أسباب القسوة حين ذكر كثرة الأكل قال: «خصوصا إذا كان من الشبهات والحرام»

ختم ابن رجب ﷺ هنا بذكر هذا المزيل لقسوة القلب وهو أكل الحلال، فأكل الحلال له تأثير علىٰ سلامة القلوب وأكل الحرام له تأثير من جهة أنّه يقسيها والله المستعان، وهذا ما يدل علىٰ خطورة أكل الحرام، وأنّ المرء يجب عليه أن يتقي الله ﷻ فيما يدخل بطنه وجوفه وفيما يحرص علىٰ أن لا يُدخل إلا حلالا زلالا، ولخطورة الأمر كان الصالحون من سلف هذه الأمة يتركون أحيانا الحلال تورعا مخافة الوقوع في الحرام.

قال عبد الله بن المبارك: «لأن أرد درهما من شبهة أحب إلي من أتصدق بمئة ألف».

ولقد رأىٰ النبي ﷺ الحسن بن علي سبطه قد أخذ تمرة من صدقة جعلها في فيه فقال رسول الله ﷺ:

«كخ كخ، ارم بها، أما علمت أنّا لا نأكل الصدقة».

وكان لأبي بكر غلام يأكل من خراجه فجاء يوما بشيئ فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال له أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أُحسن الكِهانة إلا أني خدعته فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه ، فأدخل أبو بكر يده ، فقاء كل شيء في بطنه.

الله أكبر هذا هو التورع عن محارم الله وأكل ما حرم ﷻ، وإن نتأمل في حال كثير من الناس اليوم هل يستوي هؤلاء الذين يتورّعون مع قوم –وما أكثرهم– لا يبالون ولا يتورّعون في جمع المال وأكله ولو كان من الحرام البيّن، ولقد صدق رسول الله ﷺ لمّا قال: «يأتي علىٰ الناس زمان زمان زَمانٌ، لا يُبالِي المَرْءُ بما أخَذَ المالَ، أمِنْ حَلالٍ أمْ مِن حَرامٍ»

نعم لا يبالون لأنّ همهم جمع المال وتضخيم الأرصدة والتنافس علىٰ الدنيا عموما فلأجل ذلك قست قلوبهم والعياذ بالله، ومن ثَمة أيها الإخوة من أراد لين قلبه فليحرص علىٰ أكل الحلال وهذا ولا شك خير له في الدنيا والآخرة.

ثم قال خاتما رسالته: «والحمد لله وحده» فختم رسالته بالحمد ، فأبو الفرج ابن رجب رحمه الله في هذه الرسالة «ذّم قسوة القلب» تكلم في أمور مهمة تتعلق بأسباب تُجتنب للقسوة وبمزيلات يحرص المرء عليها، ومن حرص علىٰ ما ذكر فإنه يحصل له بإذن الله تعالىٰ لين قلبه وزوال قسوتها.

ونسأل الله جلّ وعلا أن ينفعنا بما سمعنا إنه ﷻ سميع مجيب.

والله تعالىٰ أعلم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمحد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.